سلسلة حكمة الشرق (٢)

R.P. Masani

الزرادشتية

ديانة الحياة الفاضلة



مهّد للكتاب: خالد جعفر

ترجمة: د. محمد نديم خشفة



مركز الإنماء الحضاري

الزرادشتية

ديانة الحياة الفاضلة

عنوان الكتاب: الزرادشتية ديانة الحياة الفاضلة.

سلسلة حكمة الشرق في العقائد والأديان /2 .

تأليف: ر.ب.مساني.

تقديم: خالد جعفر.

ترجمة: د. محمد نديم خشفة.

الطبعة الأولى: 1424هـ / 2004 م.

موافقة الطباعة: رقم /76871/ تاريخ 2004/03/25.

R.P.Masani

ر.ب. مساني

الزرادشــتية

ديانة الحياة الفاضلـة

تقديم: خالد جعفــر

ترجمة: د. محمد نديم خشفة

هذه ترجمة كتاب:

LE ZOROASTRISME
Religion de la vie bonne

R.P.Masani

Payot, Paris - 1939

إهـداء

إلى والدي:

الإنسان الحق الذي سعى إلى الحقيقـة باعتبارها هدفاً وغاية،

وقـد عمـد إلـى ذلـك بـالفكـر القويـم، والرؤيـة الثاقبـة،

والإرادة الماضية.

إلى والدي:

الذي دأب على أن يتمثل الاستقامة في سلوكه، قولاً وفعلاً،

إلى أن صارت حياته سفراً مشرّفاً للفضيلة السامية.

ابنك البار

خالد أحمد جعفر

بسم الله الرحمن الرحيم

(أفكلما جاءكم رسـول بما لا تهوى أنفسكم اسـتكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون.)

(سورة البقرة 87)

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.)

(سورة البقرة 146)

صدق الله العظيم



لا شك أن أي محاولة جادة لدراسة الفكر الشرقي ستضع من يقوم بذلك أمام إشكالات عديدة، تتأرجح ما بين العجز والإحراج المحفوف بالخطر، لأنها مجازفة لا تخلو من الخيبة والندم، وخاصة تلك التي تتناول العقائد الدينية لما يكتنفها من الغموض والإبهام.

وذلك يعود إلى أسباب كثيرة أذكر منها:

1- غياب المصادر الأساسية في معظم الأحيان.

2- الاضطراب الذي تعاني منه المراجع المتوافرة.

3- عدم جدية الدراسات التي تناولت تلك العقائد لأنها تفتقر إلى الموضوعية والدقة العلمية، وذلك:

آ - إما بسبب جهل الذين قاموا بدراسة تلك المراجع.

ب- وإما بدافع البغض والرغبة في طمس الحقائق، وهذا ما جعل معظم الكتابات التي بين أيدينا بحاجة إلى إعادة نظر.

وعلى هذا فإن الدارس لا بد أن يتخوف من الإقدام على تناول مثل هذه المواضيع تجنباً للوقوع في إشكالات هو بغنى عنها. وهي مَضيَعةٌ للوقت وتحملٌ لمسؤوليةٍ تكون في العادة أكبر مما يستحق الأمر في الواقع.

ومن شأن هذه الأسباب وغيرها أن تفتِّر همة كل من تحدثه نفسه بالخوض في مثل هذه القضايا والدراسات الشائكة.

لكننا إذا انطلقنا من المقولة التي تفيد بأن (جهل حقيقة شيء ما يجعلنا نجنح إلى الرأي الخاطئ بشأنه)، حق لنا أن نطبق هذا الأمر على أولئك الذين تورطوا في الكتابة عن زرادشت والزرادشتية التي هي موضوع الكتاب الذي نقدم له، وأرجو ألا يفهم من هذا الكلام أنني سأقدم للقارئ الكريم الحقيقة الخالصة عن هذه الديانة ضمن هذا التقديم المتواضع، لكنني فقط أردت أن ألفت نظره إلى ضحالة الدراسات التي تناولت هذا الدين وهي لا تتجاوز في معظمها [1] التشويه والأخطاء التي تكررت في معظم المؤلفات والدراسات التي يعول عليها كل من يرغب في الكتابة عن هذا الدين، لأن مادتها في الغالب إنما يتم تشكيلها من خلال الاستشهادات والنقول التي يتوصل إليها في العادة لإنجاز مثل هذه الدراسات، وكلي أمل في أن هذا الكتاب سوف يوفر لأولئك الراغبين في تقصي الحقيقة بعضا لابأس به منها، والله من وراء القصد.

وحسبي في هذا التقديم أن أقول شيئا يفيد القارئ في فهم الزرادشتية ضمن إطارها العام، دون التوقف بشكل مفصل عند التأريخ لمسار الفكر الزرادشتي، لأن ذلك يتطلب الكثير الذي لا يسمح به ضيق المقام هنا. [2] فالخلاف الناشب بشأن تحديد الشخصية الأساسية للنبي زرادشت ما يزال قائما، والمكان والزمان اللذان وجد فيهما، مازال الغموض يكتنفهما. هذا بالإضافة إلى ما يذهب إليه كثير من الدارسين الذين ينفون وجوده أصلا. فالأمر ضمن هذه المعطيات يعد سببا كافيا للانصراف عنه.

---

[1] من حيث المحتوى.

[2] نحيل القارئ الكريم إلى كتابنا 'دراسات في الزرادشتية' الذي يصدر قريبا.

ولكن لابد من تحديد موقع هذه الشخصية وسط هذا التضارب في الآراء فيما يخص تاريخ ولادته ومكانها وتبيان حقيقة اسمه، لتوفير بعض الطمأنينة اللازمة لكسب ثقة القارئ.

أما بخصوص ولادته فإن إجماع المصادر الحديثة التي تعتمد على المكتشفات الآثارية يفيد بأنها كانت حوالي السنة الألف والخمسمائة قبل الميلاد خلافاً لما كان يعتقده أولئك الذين ظنوا أنها كانت حوالي القرن السابع قبل الميلاد.

وقد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى سبب اختيارهم لتلك الفترة دون غيرها. فلعله يكمن في أنها كانت تزخر بأسماء أعظم مفكري العالم الذين أغنوا الإنسانية بفكرهم في الشرق والغرب. وكأن الطبيعة جادت بتلك الدفعة من العباقرة ضمن فترة زمنية محددة، صارت فيما بعد مصدر إخصاب للفكر الإنساني، الأمر الذي جعل الدارسين يجمعون على أنها تاريخياً الفترة الأكثر غنىً على الأقل فيما يخص اليونان والشرقين الأقصى والأدنى.

أما بالنسبة للاسم فإنني لا أتفق مع أولئك الذين اجتهدوا على أنه مستمد من كونه صاحب الجمال الذهبية. وكذلك لست مع من يقول بأنه ذو النور والضياء، ولست أرى الصحة فيما يذهب إليه من يدّعي أنه الغني بالإبل. لأن هذه التفسيرات جميعاً إنما هي تحميل المعنى على الاسم وتفتقر إلى المعنى الحقيقي الذي يفيد كمؤشر إلى ما يتمتع به صاحب هذا الاسم من كفاءة وتميز تخولانه لأن يكون نبياً[1]. وهذا المعنى لا يتأتى إلا من خلال إرجاع لفظ الاسم الذي حُرِّف قليلاً

---

[1] وهذه التفسيرات جميعاً إنما هي حصيلة اجتهادات شخصية قام بها دارسو حياة هذا النبي، ومعروف أن كل اجتهاد قد يصيب وقد يخطيء.

إلى الكيفية الصحيحة التي كان عليها في ميديا، حيث تمت التسمية بناء على ما كان يتمتع به الطفل من قدرات خارقة للطبيعة، وقد أثبت جدارته بما يتضمنه هذا الاسم من معان سامية كالحكمة والصدق والاستقامة والخير.

إن ضيق المجال في هذه المقدمة لا يسمح بالتوسع اللازم لشرح الأمر بشكل كامل، لأن ذلك قد يؤدي بنا إلى أن نتجاوز الحجم المقرر لها.[1]

وإذا ما انتقلنا إلى تحديد المكان الذي ينتمي إليه زرادشت فإننا نفاجأ كذلك بأن الأمر لم يتخذ بشأنه رأي حاسم ونهائي بعد، مما يزيد صعوبة الاعتماد على الآراء المتوافرة لافتقارها إلى اليقين الموضوعي، ولكننا نشير إلى بطلان الرأي الذي يدعي أنه ولد في فلسطين لخلوه من الحقيقة التاريخية والمنطقية وكذلك فإن دعوى المجوس بأنه فارسي تتعارض مع حقيقة كون تعاليم الجاتا مكتوبة باللغة الميدية، أي لغة زرادشت في موطنه الذي جاء منه وافدا إلى إيران لنشر دعوته فيها.

وهذا يقودنا بشكل عفوي إلى كشف اللثام عن الحقيقة التي دعت زرادشت إلى الخروج من موطنه والتوجه إلى المقاطعات الأخرى، للتبشير بدعوته وتعاليمه، لأن الأسباب التي يوردها دارسو حياته لا ترقى إلى تشكيل قناعة موضوعية يمكن الركون إليها واعتمادها في فهم الدوافع والأسباب الحقيقية لذلك.

لعله من المفيد أن نذكر القارئ بالأسباب الواردة في الكتب التي قرأناها جميعا حيث تفيد بأن قوم زرادشت لم يتقبلوا أفكاره وحاربوه

---

[1] نحيل القارىء الكريم إلى كتابنا (دراسات في الزرادشتية) الذي يصدر قريبا.

من أجلها لأنها مفسدة لعقولهم وتضليل لنفوسهم لما فيها من غموض وغرابة مما اضطره في آخر الأمر، وإثر تعرضه للإهانة والضرب من قبلهم، إلى أن يتوجه بدعائه إلى الرب كي يعاقبهم أشد العقاب، وقد فعل.

هذا ما أفادنا به الدارسون من الأسباب التي دعت زرادشت إلى مغادرة موطنه هائماً على وجهه والألم يعصر قلبه، لا يعرف أين يتجه بعد تعرضه للأذى من أقرب الناس إلى أن استقر به الترحال في رحاب الملك كوشتاسب حيث قبله ضيفاً إثر ما رآه منه من أفعال كان لها وقع حسن في نفسه. وجعله على رأس مستشاريه لما أبداه من أفكار نيرة وحسن إدارة.

هذا بعضٌ مما جاء في الكتب التي بين أيدينا. أما نحن فإننا نرى غير هذه الأسباب مما كان نقطة الخلاف الذي نشب بين زاردشت وقومه. ولا بأس من ذكرها هنا أملاً في تزويد القارىء بالدوافع الحقيقية لحصول تلك الأزمة وذلك كي تتضح الأمور بشكل يخفف الالتباس الذي يشوش قناعتنا بصدق ما كانوا يذهبون إليه من تفسير للأمر. وللبيان فإنني استخلصت هذه الحقائق من خلال الافستا وسيرة حياته. فأول تلك الأسباب يعود في الواقع إلى خروج زرادشت على قوانين قومه التي تنهى عن التعلم والكتابة ووضع المؤلفات. فقد عمل على جعل التعلم واجباً وطنياً لا يقل في أهميته عن أي واجب من مبادئ العقيدة الأساسية في الدين. ولعل في إشارة زرادشت إلى أن أرفع مراتب الإنسان هي أن يكون على جانب وافر من العلم تأكيداً صريحاً على إصراره بأن يجعل التعلم مطلباً إنسانياً هو بمثابة حق لا يمكن لأحد أن يحرمه منه. لأن التعليم كان محصوراً بطبقة رجال الدين والكهنوت لأنهم الجهة الوحيدة المخولة لدخول سلك التعليم

الذي ينص على حفظ النصوص الشعرية الدينية عن ظهر قلب دون كتابتها، وهكذا فقد كانت تورث شفاهة من شخص إلى آخر، لهذا أبدى هؤلاء الرجال ((الذين يمثلون الجهة الأقوى في المجتمع)) امتعاضا من دعوة زرادشت سرعان ما تحول إلى طلب صريح بمحاربته كليا عن طريق معاقبته أشد العقاب.

وأما السبب الثاني فإنه تجلى في اجتهاد زرادشت على أن هواجس السوء والشر التي تراود النفس البشرية في داخله ((بحسب المفهوم السائد لدى قومه في ميديا)) إنما هي تأتينا من الخارج من روح مفترضة خارجية تتولى إغراءنا بها حتى نقع في شرك المعصية إثر إتيان الفعل الخاطىء، واصطلح على تسمية تلك الروح بأهريمن. وقد دفعه هذا إلى ترسيخ المفهوم السامي للخير والحق من خلال مناصرة ((سبنتا مينيو)) الذي يمثل الروح القدس حيث سيتم له النصر على أهريمن بمؤازرة تأتيه من اهورا مزدا السيد الحكيم الكلي القدرة.

لقد قابل رجال الدين هذا الطرح بالشجب والرفض التام الذي سرعان ما اكتسب تأييدا شعبيا جعل زرادشت في مواجهة صعبة مع قومه وأهله وبات موقفه ضعيفا جدا وخصوصا أنه فقد تأييد رجال الدين الذين تحولوا إلى أعداء حقيقيين له، وهكذا صار زرادشت في موقف لا يحسد عليه مما دفعه إلى سلوك درب أخرى للخروج من هذه الورطة الخطرة، فآثر اعتزال الناس ولجأ إلى كهف في جبل وغرق هناك في تأمل جوهر الحياة والطبيعة، ووجد متسعا من الوقت لكي يطلق العنان لعقله النير الذي قاده عبر جولة متعمقة من التفكير إلى أن توصل إلى علة الوجود التي تتمثل في ((اهورا مزدا)) الرب الحكيم الكلي القدرة، وقد أكسبه هذا الاعتزال الحكمة وفهما أعمق للحياة، وشعر أن وعيه بأمور الدنيا بات يؤهله لحمل رسالة التبشير ودعوة

الناس إلى الصلاح والتقوى بطريقة أكثر مرونةً وتحضراً، ووجد أن من واجبه لتنفيذ ذلك أن يلاطف الناس ويدعوهم إلى جادة الصواب عن طريق تمثل ثلاثة أمور في سلوكهم اليومي لتحقيق الحياة الفاضلة التي تليق بالإنسان المؤمن وهي:

أولاً -الفكر الصائب، ثانياً - القول الطيب، ثالثاً - العمل الصالح. وتعهد بأن الالتزام بممارسة هذه الأمور كفيل بدرء المفاسد والشرور عن الإنسان إذا ما كان إيمانه بها صادقاً لا يداخله شك.

بدأ زرادشت دعوته التبشيرية وقد جمع الحكمة التي اكتسبها إثر عزلته المطولة إلى الميراث الديني الذي ورثه عن أسلافه لتكون حجته أقوى في الإقناع، ويمكن أن نذكر هنا سابقة يُشهد له بها ألا وهي أنه ولأول مرة في تاريخ الإنسانية يدعو رسول أتباعه بدعوة الأمل، وأراد أن ينقل إلى الناس الإجابة التي تلقاها نتيجة تساؤلاته عن سر الكون الذي شغله سنوات طوالاً ليقينه الضمني، بأنه ينبغي للكون أن يكون عقلانياً. وقد ساهم في هذا الاستنتاج ما كان يتمتع به قومه من الوعي الديني حيث أن تمييزهم لإله واحد هو خالق الكون جعل النبي فيما بعد يفاجأ بما رآه من الأقوام المجاورة من تقدير لبعض مظاهر الطبيعة، كالمياه والأرض والشمس، وما إلى ذلك، وهذا يؤكد عدم صحة ما يدعيه البعض من أن زرادشت كان يعتقد بالثنوية في التأليه وذلك بالاستناد إلى ما يذكره هو في بداية الأفستا ((إني أعبد الإله الذي كان دائماً، والباقي إلى الأبد، أنا أعبد الإله المتعالي بفكر واعٍ، الواحد في العالمين والخالق لهما والذي اسمه (اهورا مزدا) السيد الحكيم الكلي القدرة، والذي يتصف بصفات سبع سامية هي النور والعقل الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود)).

وتعتبر الصورة التي رسمها زرادشت لإلهه الذي يسمو على كل شيء، سابقة تجعله صاحب الفضل في تحديد أعظم تصور لهيئة الإله وطبيعته. ونرى من المستحسن هنا الإشارة إلى ما يمكن اعتباره سببا في سوء الفهم الذي وقع فيه أولئك الذين اختلط عليهم الأمر فلم يتبينوا الفرق بين عقيدة زرادشت بالنسبة للألوهة والفلسفة التي أقامها في محاولة منه لتفسير القوتين اللتين خلقهما اهورا مزدا في هيئة ملاكين يقوم بينهما صراع أبدي. الأول يمثل الخير والنمو والازدهار، والثاني يتمثل في الهلاك والدمار. وقد جاءت دعوته إلى أتباعه لأن يناصروا ((أهورا مزدا)) لا بالعبادة فقط بل من خلال العمل على تبني الخير والحق ومحاربة الشر والتمثل بالتفكير الصائب والقول الطيب والعمل الصالح.

خالد أحمد جعفر

مقدمة المؤلف

إن المفهوم الذي كوّنه زرادشت عن الحياة، هو رؤية رمزية لوحدة الوجود الجوهرية. ونرى في نظامه الديني أن الخلق كله يشق طريقه نحو هدف واحد هو الكمال. وكل إنسان في هذا العالم مكلّف بالوصول إلى هذا الهدف، ولكي يتحقق هذا الهدف المنشود، فمن الواجب السير في الدرب الذي يقود الإنسانية إلى مصيرها، وهذا الدرب هو درب آشا Asha، أو درب الاستقامة، ولا تستأهل الدروب الأخرى أن تُذكر. أما اهورا مزدا Ahura Mazda السيد المتصف بالحكمة المطلقة، فهو مصدر الروح الخيرة، ومن ثم، فإن الروح الخيرة هي الأُسّ لكل فكرة طيبة، والأصل لكل قول أو عمل صائب. وعلى هذه الأعمدة الثلاثة: الأفكار الطاهرة، والأقوال الطاهرة، والأعمال الطاهرة، شيد زرادشت صرح قانونه الأخلاقي العظيم الذي كان له بالغ الأثر في حياة الإيرانيين القدماء، على مدى العصور، وما نزال نجد له أثراً - ولو ضعيفاً - في مزاجهم وسلوك أحفادهم. وعلى هذا، يمكن أن توصف عقيدة زرادشت بحق، بأنها ديانة الحياة الفاضلة. فهي قبل كل شيء، الديانة التي ترى أن الأعمال الصالحة أفضل ما نقدمه إلى الرب وأحبها إليه. وترى تعاليم المعلم زرادشت أن الرفعة الدينية لا تكون في التقشف، والأضاحي والنذور المقدمة إلى قوى الشر، ولا تكون في السعي وراء ميزة دائمة التواري، صعبة المنال، ولا في العكوف على الذات، بل هي في الممارسة اليومية للفضيلة الإيجابية، وفي نشر الأعمال الصالحة.

إن الحياة بأكملها تدور حول مشكلة الشر، وإن مصير الجنس البشري متعلق بحلها. فالعالم المادي الذي يحيا الإنسان فيه عامر بالشرور، مما يثير في النفس البشرية نزاعاً دائباً بين ما هو حيواني

وما هو إنساني، بين عنصر الشر والعنصر الإلهي. والنتيجة: أن حياة المرء تغرقها الأحزان والآلام، على الرغم من كونها حياة جديرة بأن تعاش. إن النبي المقدس الذي كانت حياته مثالا جديرا باستيحاء الجهود الأخلاقية الأكثر رصانة، يدعو مريديه إلى قبول التحدي الذي أعلنه عنصر الشر، وأن يسيروا جنودا ميامين تحت راية خالق الصلاح. وتضاف إلى دعوة التجنيد هذه، رسالة تحث الهمم وتحييها وهي: أنه إذا ما أدى المرء واجبه، فإن إرادة الخير ستنتصر في النهاية.

ليس الأمر مجرد موقف سلبي من الشر. وليس بالهرب منه، بل بمواجهته بكل إقدام، يستطيع الإنسان أن يحقق قدره السامي وهو اجتياز عالم الشر، وافتداء نفسه وإقامة سلطة العدل على هذه الأرض. فبالأمس، لم يكن الإنسان سوى حيوان، واليوم بعد أن أصبح إنسانا، فهو مدعو إلى أن يغدو ملكا ، و إلا فسيواجه، إن عاجلا أو آجلا، نتيجة العد التنازلي عن كماله.

إن الصراع الدائر في قلب الإنسان ليس سوى انعكاس لما يواجهه في العالم الخارجي. فالإنسان قد صارع عناصر الطبيعة وأخضعها لكي يقضي على الأوبئة ويجعل الكون أكثر ملاءمة لسكن كيانه المادي. كذلك ينبغي له أن يخاطر بخوض حرب مدمرة ضد قوى الجهل، والخرافة والسذاجة والتعصب، لكي تسمو مداركه العقلية. إن مسيرته من الناحية الاجتماعية تضطره إلى محاربة المساوىء والمظالم المتفشية بين الجماعة. وإن رقيه الأخلاقي رهن بهذه الحرب الأعظم بين الحروب التي ينبغي له أن يخوضها مهما كانت خسائرها. ونحن ندعوها الحرب المستمرة ضد كينونته المتدنية.

الكون ساحة معركة. والإنسان حليف روح الخير حينما يهاجم كل مظاهر الشر. وإن ما يطلبه زرادشت من أتباعه هو التعاون الوثيق

مع روح الخير للوقوف في وجه قوى الشر. فلا يكفي أن يتجاهل المرء الشرّ، أو يمتنع عن التعاون معه، بل ينبغي له أن يستنكره من أعماق قلبه، وأن يهاجمه بشجاعة. (قاوموا الشر) تلك هي صرخة الحرب الزرادشتية، إن هذا المفهوم النضالي في جوهره، هو الذي يجعل مبادئ الحياة الصالحة لدى زرادشت، مختلفة عن غيرها من المبادئ التي دعا إليها غيره من العرافين الذين يحضون الإنسان على تجاهل الشر، أو تحمله بسلبية إذا أصابه. وهم يصرّون على تحقيق الخير السلبي، بإلغاء الرغبات، على المذهب الرواقي والوصول إلى السكينة الفكرية الآمنة. والنتيجة الطبيعية لكل ذلك: عدم الاهتمام بكل أسباب الفرح والحزن، والخضوع، والتسامح السلبي تجاه كل ألوان الشرور. أما زرادشت، فعلى العكس من ذلك، إنه ينفث في قلوب مريديه مقتاً إيجابياً للشر، ويحثهم على خوض الحرب المدمرة ضد روح الشر، ويحضّهم على الثبات في المعركة، وألا يولوا الأدبار لعدوهم الأكبر. ولا نجد في عقيدته شيئاً يوحي بالاعتقاد أن خير وسيلة لدفع أرواح الشر هو ((معارضتها بقوة الصلاح)). كما أنها لا تسمح باسترضاء هذه القوى الفاسدة أو التصالح معها. فلا مكان، في فلسفة الوجود هذه، للتنسك، أو الاستسلام، أو حياة العزلة، أو العزوبية، أو التسول، أو الصيام، أو إماتة الجسد. ولا ريب أنه توجد فيها كفارة، ولكنها عقوبة لذنوب اقترفت بالفكر، والقول، والعمل.

هذا هو الصرح الأخلاقي الأساسي في الديانة الزرادشتية وقد استقر في قاعدته هذا المبدأ: لا ينبغي أن يكون المرء صالحاً فحسب ويهرب من الشر، بل عليه أن يفعل الخير ويقاوم الشر، هذا هو الإسهام الكبير الذي قدمه زرادشت إلى الفكر، والممارسة الدينية. وتبقى رسالته في الواجب الأخلاقي والأمل، الملاءمةَ المستمرة للعقائد

الرئيسية مع مشكلات الحياة اليومية. كما أن الجهد الدائب لدحر الشر يكون الشخصية. وأثناء الكفاح الدائم ضد قوى الشر تتطور بعض القدرات التي تعززها الممارسة، مثل: الفكر الخلاق، والشجاعة، والعدالة، والمروءة، واستكمال الذات، والتفاني إلى حد التضحية بالنفس. والحرص على هذه الفضائل هو الواجب الذي دعا النبي إليه مريديه. فلا نجد مثالا دينيا، أو أمرا دينيا، قد أضفى على الوجود كرامة أسمى، أو ساعد الإنسان على الاقتراب من الرب، مثلما فعلته صرخة الحرب هذه الداعية إلى مقاومة الشر والتحصن ضده، والتسلح بالفضائل، بحيث لا تضمن النجاة للفرد فحسب، بل للإنسانية جمعاء.

ونذكر من بين الصفات التي يتميز بها البارثي على غيره من الجماعات أو الشعوب: حيويته التي أتاحت له مقاومة تقلبات الزمن، وقدرته على التلاؤم مع الظروف الطارئة، ومثابرته، وحسه المدني. ولكن أرقاها جميعا هو حبه للإنسانية. فإلى أي مدى أمكن لهذه الصفات أن تستوحيها أو تتمثلها الديانة التي تؤمن بها الجماعة البارثية؟ لقد طرح هذا السؤال على الدوام. ولن تجد في الصفحات التالية محاولة للإجابة عنه. وسوف يستخلص القارىء بنفسه النتائج بعد أن تعرض عليه المبادئ الأساسية لتلك الديانة، ويطلع على قواعدها الأخلاقية.

إن البارثيين شعب ورع، وتشكل الصلاة مسيرة حياتهم.

وقد لفت الدكتور مولتون الانتباه إلى هذا المظهر من مظاهر الزرادشتية، وإليك ما قاله: في الصلاة التي تدعو أن يعم الازدهار بكل ألوانه، الدار التي تقام فيها، نقرأ ما يلي:

" في هذه الدار ، الطاعة تنتصر

على العصيان، والسلام يدحر الحرب

والكرم يطمس البخل

والتقوى تهزم العصيان الفاسد

والكلام الحق يزهق البهتان

و(آشا) يدمر (دروج) إلى الأبد" .

هذه ضراعة بالغة الغنى، وينبغي لمن يقدمها أن يوجه حياته باتجاهها، وأن يحياها،[1] .

إني لا أزعم، وأنا أضع كتابي بين يدي القارئ، أنني قد قمت بعمل أصيل، أو انتهيت إلى نتائج من أبحاثي الخاصة. فقد استفدت من الأعمال السابقة الخاصة بهذا الموضوع. واستفدت خاصة من الإسهامات الرائعة التي عرض فيها المرحوم السيد (جيفانجي مودي)، كنوز العقائد الزرادشتية، الذي يبقى اسمه مقترنا بالدراسات الإيرانية، فلذكراه كل تقدير ومحبة. كما أني مدين إلى الدكتور 'دستورم.ن دهالا' .

كتابي هذا موجه إلى أولئك الذين لا يدينون بالزرادشتية. وقد حاولت في الجزء الأول - بما أمكن من الإيجاز- تحديد العقائد الأساسية لهذه الديانة العظيمة، وإيضاح مظهرها الأخلاقي خاصة. أما الجزء الثاني فيقدم لمحة مختصرة عن الطقوس والشعائرالزرادشتية، وهي تلخيص الأطروحة الرائعة التي قصرها 'جيفانجي مودي' على هذا الموضوع، بعنوان: 'الشعائر والأعراف الدينية لدى البارثيين' .

---

[1] J.H. Moulton , The treasure of the Magi.

وأرى من الواجب التعبير عن عرفاني لكل الكتاب الذين اطلعت على مؤلفاتهم، وأشرت إلى مصادري في مواضعها. وأشكر كذلك نيافة الدكتور 'ماك كينزي' باسمي واسم كل المؤمنين على اختلاف دياناتهم في هذه المدينة المدعوة بومباي.

وقد تفضل الصديقان الأستاذان في الفنون، السيدان 'ب — ن — دهبار' و 'ب.ت. أنكليساريا' بمراجعة مخطوطة الكتاب وأسديا إلي النصائح القيمة. فإليهما كذلك يتوجه عظيم شكري وامتناني.

ر. ب. ماساني

R.P.MASANI


الجزء الأول

الفصل الأول

قاعدة الإيمان

'الإيمان المقدس هو الأفضل بين كل الأشياء'، بهذه الكلمات تتحدث 'الأوشتا فايتي جاتا' (Ushta Viti Gatha) عن الإيمان الزرادشتي.

وأما الفنديداد (Vendidad)، فتتحدث بإفاضة أكثر وجدا حين تعلي من شأن هذا الإيمان:

'إن النهر العظيم يجري بسرعة لا يمكن مقارنته بالجدول القليل ماؤه. كذلك القول العظيم الذي يعلو على كل قول، سواء من حيث جلاله، أو جماله، أو صلاحه. إنه الشريعة الزرادشتية التي تحطم الدايفا (Daeva)'.

'وكما تعلو السماء من فوق الأرض، وتحيط بها من كافة الجهات، كذلك تسمو فوق كل العبارات، هذه الشريعة، شريعة مزدا التي تحطم الدايفا'.

منذ وجود الجاتا والفنديداد اعتنق مختلف أعضاء الأسرة الإنسانية كثيرا من الديانات الجديدة، ولكن لا أحد قادر على الحديث بمثل هذا الدفق، وبمثل هذه العبارات الحماسية عن الإيمان الزرادشتي، ولا يقدر على تمجيد صفاتها، مثلما تفعله الكتب الزرادشتية المقدسة. ويحق لأي معتنق لعقيدة هذا النبي أن يحس بالفخر حينما يتذكر أن الديانة التي يؤمن بها قد أنارت، في سالف

الدهور، العالم الواقع في ما وراء جبال الهملايا، وأيقظت الفكر المثقف للإغريق والرومان، وأثرت في فلسفته- وتسربت كذلك إلى اليهودية وبواسطتها إلى الديانة المسيحية، وتركت بصماتها على التطور الروحي للجنس البشري.

لقد عرفت أوروبا ديانة زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد بوساطة هوستانس (Hostanes) كبير الكهنة الذي صحب 'خشياره شا' (Xerxes) في حملته على اليونان. وفي القرن الرابع قبل الميلاد أعلن أفلاطون، وأرسطو، وثيوبومب (Theopompe) أنهم قد اطلعوا على تآليف هذا النبي. وفي القرن التالي تحدث عنهما هرميب (Hermippe) بحماسة، وهو يرى أنها لا تقل عن مئة وعشرين ألف بيت من الشعر. وفي بداية التأريخ المسيحي ذكر نيقولا الدمشقي، وسترابون، وبوسانياس (Pousanias)، وبليني (Pline)، وديون كريزستوم (Dion Chrysostome) المؤلفات المنسوبة إلى زرادشت، بعناوين مختلفة. وأبدى القديس كليمان الإسكندري، الذي عاش في القرن الثالث للميلاد، معرفته بالكتابات الزرادشتية.

وبعد ذلك بزمن طويل، استخدم الغنوصيون علم نشوء الكون الشرقي، وعلم النفس المقتبسين عن الزرادشتية.

ويشهد إيسوب في القرن الرابع، على وجود مجموعة من الكتابات الإيرانية المقدسة، وبعد ذلك بقرن أحالت الإمبراطورة إيودوكسي (Eudoxie) إلى عدد من كتب هذا النبي، وأربعة منها تتناول الطبيعة، وآخر الأحجار الكريمة، وخمسة علم التنجيم والعرافة[1].

---

[1] انظر كتاب (محسان فاني) الذي ترجمه عن الفارسية (أنطوني ترويز) و(دافيدشيا) بعنوان The Dabistan or School of Hanners .

صلة القرابة بين الزرادشتية واليهودية

خلال فترة من الزمان حسب علماء اللاهوت المسيحيون أن عقيدة زرادشت قد اقتبست من العقيدة اليهودية. وإن العالم بريدو (Prideaux) في كتابه المعتمد عن العلاقات بين العهد القديم والعهد الجديد، قد توصل إلى استنتاجات مغلوطة لاعتماده مصادر غير موثوقة، فذكر أن هذه الديانة الإيرانية قد حاكت اليهودية، وأن نبيها قد اطلع على كل الكتابات المقدسة للعهد القديم الموجودة في عصره، ومن ثم بات جليا 'أصلها اليهودي'.[1] ومنذ ذلك الحين، رفض الكثير من العلماء هذه النظرية، ولكن مثل هذه الأخطاء يطول انتظار موتها. فمن الضروري إذن، أن نعرض بشيء من الإسهاب، بعض الوقائع التاريخية والنتائج التي توصل إليها مختلف علماء المسيحية.

حوالي سنة ستمئة قبل الميلاد، وقع السبي على اليهود، وسيقوا إلى بابل، حيث وجدوا أنفسهم على اتصال دائم بالإيرانيين. وأثناء هذا السبي الذي دام – كما هو معلوم – مدة سبعين سنة، أقتبسوا من الديانة الزرادشتية عددا من العقائد، كالإيمان بخلود الروح، وبعث الأجساد، والثواب والعقاب في اليوم الآخر. يقول ماكس مولر (Max Muller) : 'إنه لأمر معروف أن كل هذه العقائد، أو معظمها، كان غائبا من ديانة اليهود في أقدم مراحلها'.

وقد أسهب الدكتور ويست (west) في شرح هذه الآراء، فكتب يقول: 'إن قلة من المسيحيين يمكنهم الإقرار بأنهم مدينون بمفهومهم عن البعث، وعن العالم الآخر، لمأثورات الديانة المزدية. وسيكون صعبا عليهم إنكار هذه النظرية، ونترك لمن يداخله ريب في ذلك، أن ينظر في

---

[1] العهد القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود والأمم المجاورة ، الكتابان : الرابع والثاني .

عدد النصوص التي تشير إلى البعث والآخرة، ويكشف عن النصوص الإسرائيلية المدونة قبل أن يتصل اليهود بالفرس، ثم يقارن نتيجة أبحاثه بالمقاطع التي تعالج المواضيع ذاتها، فيجدها في المزامير المتأخرة، ولدى آخر الأنبياء، وفي سفر أيوب والعهد الجديد. وهي نصوص دونت بعد أن عرف اليهود المأثورات الفارسية. ويبدو سفر أيوب، في الواقع، وكأنه قد ترجم إلى حد ما، واقتبس عن الفرس'[1].

في مقالة باهرة كتبها الدكتور ل . هـ . ميلز (L.H. Mills) وهي جزء من دراسة حول زرادشت والإنجيل، يلفت الانتباه إلى ما يدعوه 'الحقيقة التي لا ريب فيها اليوم، وكنا نظن وجودها منذ زمان طويل'[2] وهذه هي الحقيقة:

'لقد شاء العلي القدير أن يكشف عن بعض المواد الأكثر أهمية لاعتقادنا الكاثوليكي. ويرجع بعضها في المرتبة الأولى، إلى الزرادشتية، ومن بعدها إلى كتابات اليهود، ثم إلى أنفسنا بالذات.. وأقول بإيجاز ومن وجهة نظر أرثوذوكسي، إن نصوص العهد القديم والجديد تبقى بلا نظير، من حيث ورعها وجلالها، ولئن لم يعرف الفكر الإنساني في هذا المجال أكثر منها إقناعا، ولئن كان الإنجيل، يستأهل أن يعرض وكأنه 'منزل' فإن الديانة التي يعتقدها عباد مزدا، وهي ديانة أكثر بساطة، ولكنها أقدم من الإنجيل، قد لعبت دورا مفيدا لإبراز الكثير من المفاهيم المنتشرة لدى علماء الدين اليهود و تجسيمها، وإدخال العديد من الآراء الجديدة تماما. وأما فيما يتعلق بعقيدتي البعث والخلود فإن المزدية قد آمنت بهما إيمانا لا يتزعزع. ولكن الخدمة الجلى، والأكثر نبلا التي نحن مدينون لها بها، فهي إشاعة

---

[1] مدخل إلى(مينيو -إ - خارد) Mainyo -Khard -1871 .

[2] كانون الأول 1894 . ثم ظهرت في مجلدة بعدئذ .

العقيدة القائلة بـ 'أن الفضيلة هي بالأساس ثواب ذاتها'، وكذلك الحساب الديني القائل بـ 'أن الشر هو عقاب ذاته'.

ويقدم الدكتور ت .ك .شين (T.K. Cheyen) تفصيلات أوفى، وإليكم الملاحظات التي بينتها محاضراته حول الأصل والمحتوى الدينيين لسفر المزامير – مدروسا على ضوء النقد المطبق على العهد القديم، وتاريخ الأديان: 'خلال عدة قرون وقبل عهد المزمور، عرفت الديانة الزردشتية تطورها المستقل، وعلى طريقتها. وخاصة عقيدتها حول 'أمور الآخرة' فهي عائدة لها وحدها. ولن تكتمل معارفنا عن دراسة العهد القديم إلا إذا انصرفنا إلى دراسة هذه الديانة القديمة. ولا عذر لأحد بعد اليوم إذا عكف على دراسة العهد القديم ولم يقارنه بأسفار الزرادشتية المجموعة'. ويقول شين بعد ذلك: 'لنسلم بأن الروحانية قد تأثرت بالزرادشتية، فيتضح كل شيء. إن الفرافاشي (Frafashis) تتلبس عن طواعية أجسادا قابلة للفناء، لكي تناضل في سبيل الرب وسبيل الصلاح، سلطة الشر، فيحق لنا، وبكل عقلانية، القول إن هناك تشابها مع معتقد الروحانيين فيما يتعلق بـ 'هبوط' الأرواح، وهو اعتقاد طورته الزرادشتيه إلى أقصى مداه، ولكن مع وجود بعض الأصول اليهودية. وماذا يقال عن الفصل الأخير الذي جازفت بافتراضه عن الدراما الروحانية حول الروح؟ أليس هو أيضا عنصرا زرادشتيا قد تهود؟ إن الإيمان بحياة أبدية ينالها كل الصالحين، وتتضمن تحولا للجسد لم ينبثق عن الاعتقاد السامي القديم بـ'T.K.Cheo' بمجرد التطور البسيط، وليس مقتبسا اقتباسا مباشرا من نظام فكري غريب عن اليهودية. لنفترض أن شعب إسرائيل لم تكن له علاقة بالزرادشتية، وفي هذه الحالة، من الوجهة التاريخية، يكون عبثا نضاله من أجل تحقيق أسمى تطلعاته الدينية، والحال أن

الجماعة اليهودية، هذه الأمة – الكنيست، ليست مدينة للفرس فقط، بالمكتسبات السامية التي حصلت عليها ديانتها. فالتمييز بين الروح والجسد قد بدأ القول به منذ زمن طويل (المزمور/73)، وهيأ هذا التمييز الديانة اليهودية لكي تتلقى تأثير نظام فكري أكثر منها تقدما، وطوعها له. فما هو ذلك النظام؟ إنه الزرادشتية، إن كانت البراهين السابقة كافية.'[1]

أما فيما يتعلق بالتشاكلات والتباينات اليهودية فهي قائمة أيضا على أفكار زرادشتية تتصل بـ 'الأميشا سبينتا'(Amesha Spentas)، أي الصفات الإلهية المشخصة على شكل سمات ذهنية مقدسة. وإن مفهوم روح الشر الذي انتقل من ديانة اليهود إلى المسيحية، قد تأثر بعقيدة وجود الـ 'انجرا مينيو'(Angra Mainyou) وإن 'أسموديه' (Asmodee) المذكور في سفر 'توبيت' (Tobit) المزيف، يتماهى إيجابيا مع 'إشما دايفا' (Aeshma Daeva) روح الشر المزدي الهائج [2] يقول إيفريت (Everett) : هذا يبين لنا أن السبيل قد مهدت لروح الشر عند الفرس لكي تعبر إلى جبل الجليل، ولئن وجد أحد أفراد جيش الشر سبيله إليه، فلا سبب للافتراض بأنه وصل وحيدا ...

والشيطان (Satan) قد ظهر لأول مرة في الأدب اليهودي في مطلع سفر أيوب وفي خاتمته. والعلماء الثقات من أمثال دافيدسون، ودرايفر، وشين وغيرهم ليسوا قادرين على نسبة تاريخ تأليف هذا

---

[1] The origine of the P salter ,PP. 394 – 419-423

[2] إن المذكور هنا باعتباره شيطانا ، ليس سوى تشخيص بسيط للغضب .

السفر إلى عهد السبي. فليس محالا أن يكون تأثير الفكر المزدي قد أصاب كاتبه'[1].

إن أحدث من أنكر نظرية تأثر الزرادشتية بالمعتقدات اليهودية هو الدكتور شارلز غور (Charles Gore)، أحد أنبه المختصين المحدثين في الدراسات الدينية، فهو ينفي فرضية المصدر الأجنبي ويلاحظ قائلا: 'من الواضح أنه يستحيل البرهنة على أن هذه الديانة الفخمة، مهما كان تشابهها بالمعتقد اليهودي قويا – قد اقتبست من اليهود.

فتاريخها يجعل هذا الفرض مرفوضا، ولكن لا وجود كذلك لمصدر أجنبي آخر يمكنها أن تتصل به. وعلى الرغم من تزمتها الشديد تبقى ابتكارا ذا أهمية عظمى، ولعل الأقرب إلى الحكمة أن نشير إليها – كما فعل زرادشت نفسه – على أنها وحي أنزل على رجل اختاره روح القدس نبيا '[2].

المفاهيم الهندو – إيرانية

هل هي ديانة؟ إن الأسئلة التي تتردد تسع مرات من عشر، هي الآتية:

من كان مؤسسها؟ متى وأين بشر برسالته؟ كيف كان حال المجتمع حينئذ؟ على أي قاعدة أقام عقيدته؟ وللجواب على هذه

[1] مقالة حول الشيطان في ' العالم الجديد ' 2 آذار 1895

[2] The Philosophy of the Good life , P. 481 .

التساؤلات المتعلقة بديانة زرادشت، نجدنا ضائعين في غيابات الماضي السحيق.

في الدهور الغامضة لتلك الأمم العريقة، كان يعيش معا، الأسلاف الآريون للبارثيين والهندوس الحاليين، قرونا طويلة، في منطقة يصعب علينا تحديدها بدقة. وكانوا يشكلون حينئذ، عرقا واحدا، ويتكلمون لغة واحدة، وكانت ديانة بلادهم هي ديانة عرقهم نفسه. ولكن سيف الفتنة قطع وترا من أوتار عودهم المتناغم، وأدى تبدل الأفكار لدى أفراد هذه الجماعة السعيدة إلى إشاعة الفرقة بينهم. فهاجرت إحدى مجموعاتهم إلى إيران، والأخرى إلى الهند.

وطبقا للأفستا فإن الآريين ('النبلاء') كانوا في أصل نشأتهم سكان البلاد الجميلة التي تدعى أريانا-فايجا (Aryana - Vaeja) أي: مهد الآريين. ويحدد 'ب.ك. تيلاك' (B.C Tilak) موطنهم في مناطق القطب الشمالي، ومنه انحدروا نحو البامير (Pamir). وكان موطنهم بعيدا في الشمال 'حيث السنة تدوم يوما واحدا'. إن هذين الفرعين من الأصل الآري قسما العالم إلى سبعة أقاليم.

وقد حفظت لنا نصوص الأفستا شيئا عن الديانة المشتركة بين هاتين الجماعتين، وعن الخرافات الشائعة لديهما. ونرى تشابها بين الفكر الشائع في هذه المجموعة من النصوص وبين مفاهيم الفيدا. ولكن يوجد كذلك مثيلها من الاختلافات أدت إلى الفرقة بينهما.

" من الطبيعة إلى رب الطبيعة "

كان الإنسان يعيش في ذلك الزمان بصحبة الطبيعة، وكان يعتمد في معيشته ومسكنه على القوى الفيزيائية المحيطة به. وكانت تبدو له

هذه القوى عامرة بالحياة وكان واثقا من أن قوى روحية - خفية، تمارس سلطانها على الشمس، والقمر، والنجوم، والسحب، وعلى هذه الأرض بينابيعها، ومجاري مياهها، وأشجارها، في مقابل هذه النعم التي وهبتها العناصر المقدسة، كان يحق لها أن تتلقى من الإنسان العبادة، والشكر على شكل صلوات وأضاحي، بما في ذلك التضحية بالطيور والحيوانات.

والحال أن سلطان الأرواح الخيرة لم يكن مطلقا. وتحت ضربات الكوارث الطبيعية كالزلازل، والأعاصير، والأمراض المزمنة، والأوبئة وجد الإنسان نفسه في مواجهة قوى شريرة، مفسدة، وكأنها تناهض سلطة القوى العظمى، وتناقض أفعالها الخيرة. فأضيف إلى تقديس قوى الطبيعة تشخيص صفات الإنسان، وقدرته على الخير والشر، وبدا الخير والشر وكأن روح شريرة أو خيرة تحركهما. ومنذ ذلك الحين، أحاطت بالإنسان ملائكة حارسة تستوجب العبادة، وأرواح شريرة ينبغي طردها، وعفاريت تجب محاربتها.

واستمر الأمر على هذه الحال. فالشكل التقليدي للاعتقاد الآري، وكذلك عقيدة قدماء الإيرانيين، وكل الشعوب المتفرعة عن الأصل الآري، كانت تتوجه "من الطبيعة إلى رب الطبيعة". والفكرة الكامنة وراء هذا الاعتقاد هي وجود خالق للكون، يملك الحضور الكلي، والعلم الكامل، والقدرة الكلية. قبل ظهور زرادشت بدهر طويل، كانت ديانة إيران هي المزدية بمعنى أنها تؤمن بمزدا، الإله الواحد، المالك للحكمة المطلقة، وينبغي عليها عبادته. فمن ديانة الطبيعة تولد وتطور - بفعل الفكر الإنساني - الرأي القائل بأن وراء المظاهر المتعددة يوجد الواحد ولا شيء سواه.

'من الطبيعة إلى رب الطبيعة': لم تكن تلك سوى مرحلة منطقية في تطور الأفكار الدينية. ومع مرور الزمن، حول الشعب ناظريه عن هذا المبدأ الجوهري لعقيدة موحدة أساسا، وانقلب تقديسه لقوى الطبيعة العظمى إلى عبادة الطبيعة ذاتها، فتوجه بالعبادة إلى أمشاج من الآلهة والأسياد، وطلب رضاهم.

مجيء زرادشت

كلما أصاب العقيدة القديمة فساد، ظهر أنبياء أو مصلحون يدعون 'ساو شييانت' (Saoshyants) أي: مصلحي الجماعة، يقومون الديانة، ويعيدون صفاءها البدئي إليها، ويذكر من بين هؤلاء:

'جايومار' (Guyomard) و'هوسلانغ' (Hoslang)، و'تهمورز' (Tehmuras) 'وجمشيد' (Jamshid) و 'فريدون' (Faridoun). وتتكلم نصوص الأفستا عن ديانة تلك العصور باسم 'باوفيو – تكيشاس (Paovyo – Tkaeshas)، أي: القدماء، أو أول الدعاة، أو المرشدين الدينيين. وفي عهد الملك كوشتاسب (Goushtasp) من السلالة الكايانية، تراجعت الديانة المزدية، أو عبادة مزدا بشكل خطير، بفعل انتشار العقيدة 'الديفانية'، أو عبادة ديراس (Daeras)، أو قوة الشر، التي يقرنها بعضهم، كما رأينا – بالألوهية الفيدية، أو الآرية وما قبل الآرية. ويهيمن بعض هذه الآلهة على الظواهر أو الأمور الطبيعية، ويهيمن بعضها الآخر على الصفات المؤذية، وظهر – بعدئذ – نبي أو مصلح على مسرح الأحداث، يبشر بديانة لاقت المعارضة، ونالها الكثير من التحريف اللاحق، ولكنها بقيت إلى أيامنا هذه، وليس فيها سوى عدد ضئيل من عناصرها المميزة لها، ويدعى هذا النبي زرادشت سبيتاما، وأصله من سبيتاما.

لكي نحدد مكان ميلاد زرادشت وتاريخه، ينبغي لنا الخوض في مناطق مظلمة، حيث الأسطورة تزاحم التاريخ. ويعتقد، إلى عهد قريب، أن زرادشت هذا قد ولد في الري. ولكن السير جيفانجي مودي قد أكد بشكل مقنع تماما، أن مكان ميلاده هو أموني أو أموي في مقاطعة أورونانيا[1]، أما تاريخ ميلاده فموضع خلاف. وهو يتراوح لدى الكتاب القدماء، أمثال:

إكزنتوس، وأفلاطون، وبلين، وبلوتارك مابين 6000 و 1000 قبل الميلاد.

ويقترح بعض الكتاب المحدثين تاريخا يتراوح مابين 12000 و 800 قبل الميلاد.

وليست هذه الأقوال كلها سوى افتراضات لا تقوم على براهين موثوقة. وبعض قدماء الكتاب البهلويين يجعلون هذا التاريخ ثلاثمئة سنة قبل الإسكندر الأكبر، خلال القرن السابع قبل الميلاد، دون تحديد دقيق. ويرى بعض العلماء المحدثين مثل الأستاذ جاكسون والدكتور ويست، أن الإحالات المنقولة أو المذكورة تاريخيا عن مختلف مراحل حياة هذا النبي أو أحداثها، تؤكد التاريخ الذي يحدده الكتاب القدماء الذين سبق ذكرهم. و ينبغي لنا مهما يكن الأمر، أن نرجع إلى ألفين وستمئة سنة في الماضي، لكي نكتشف الأثر أو الأرض التي نمت فيها عقيدة زرادشت.

لقد كانت الديانة المزدية القديمة تمارس سلطانها على شعب إيران، ولكن نالها التحريف، فكانت رسالة النبي إصلاح هذا الفساد. وإليه يعود الفضل بأن استنبط من عبادة غامضة للطبيعة دين توحيد

---

[1] في كتاب "دراسات زرادشتية" يقبل الأستاذ جاكسون مكتشفات الدكتور مودي.

راقيا، ومحددا. وحين بشر بأخلاق التوحيد الصافي أعلى زرادشت من شأن الجانب الأخلاقي للطبيعة، كما لم يفعله أي نبي قبله. وبعبارات راقية، حافلة بالفضيلة المقنعة يصف المثل الأعلى للحياة الصالحة للإنسان. وبذلك يؤكد هذا المفكر المتحرر الذهن، وبحماسة لا تضاهى، أن الإرادة التي تحيط بها الشرور من كل جانب، وتسيطر على الأشياء في الكون – هي إرادة خيرة، ومن ثم، فإن الخير سيعلو مهما طال الزمان، على شرط أن يقاوم الإنسان الشر، ويعيش حياته في الصلاح، ويؤدي واجبه كما ترسمه له 'الديانة المزدية الصالحة'. وقد التزم جانب هذا المعتقد النبيل، ودعا كل امرىء شهم، طيب إلى مساعدته، لتدعيم رؤى إله الخير. وبذلك تطورت، ولأول مرة في العالم (الآري)، فكرة الحياة الصالحة، وتوضحت سماتها في تعاليم زرادشت، وربما، لأول مرة في تاريخ الإنسانية، يدعو رسول أتباعه بدعوة الأمل والرجاء، وسوف تعبر عنها المعتقدات الكثيرة اللاحقة عليها. ولعل أبيات تينسون الخالدة تعبر عنها حرفيا:

آه ! على الرغم من كل شيء فنحن نأمل

أن يكون الخير خاتمة، وهدفا، للشر ذاته.

الفصل الثاني

ميلاده، ونشأته العائلية

كان 'بوروشاسبا' رجلا تقيا، متعلما، وعضوا في فرقة المحاربين في 'سبيتاما'، قريبا من الأسرة الحاكمة في إيران القديمة، وتزوج 'دوغدوفا' ابنة أحد الأشراف من تلك البلدة، وكانت هي كذلك معروفة بالتقوى والصلاح. وولد لهذين الزوجين النبيلين خمسة أولاد، كان زرادشت ثالثهم.

لقد حيرت دلالة اسمه كثيرا من العلماء، فاسم عائلته الذي تناقلته الأجيال هو 'سبيتاما'، واقترح بعضهم لتفسير اسم زرادشت: 'الذي يملك إبلا شوارف، أو إبلا صفراء'، ويرى بعضهم الآخر أن معنى هذا الاسم: 'الكاهن الأعظم'. ولعله عرف بهذه التسمية بعد أن أعلن ديانته.

وقد ترجمت إلى الإنكليزية بهذه الكلمات: 'ذو النور الذهبي'، كما أصبح الأمير 'سدهارتا' بوذا (أي: *المشرق*)، وعيسى بن مريم *المقدس* (Oint)[1].

وكما حدث لغيره من الأنبياء، فإنه تروى عن مهمة سبيتاما زرادشت الدنيوية، معجزات كثيرة فيروى أن النور الروحاني كان يشع منه وهو جنين في بطن أمه، حتى لقد أحاطت بها هالة من الضياء. وما تزال هذه الروعة تزداد كلما اقترب موعد ميلاده؟ وحين ولد لم يطلق

---

[1] انظر ، ' ديانة زرادشت ' ، للدكتور : إيراش تارا بوفلا .

صرخة بكاء – كما يفعل كل الولدان العاديين، بل ولد مبتسما [1]. وتذكر المأثورات أن الطبيعة ابتهجت تعبيرا عن انسجامها المتوائم مع النبي المنتظر:

' بعد مولده، وكلما مرت الأيام

المياه والنباتات تزهو

بعد مولده، وكلما مرت الأيام

المياه والنباتات تنمو

بعد مولده ، وكلما مرت الأيام

هتفت 'سلاما' يا كل مخلوقات

الأحد القدوس.

' سلاما! فقد ولد بيننا الكاهن

سبيتاما زرادشت ' [2].

أثناء ذلك، أصاب الاضطراب روح الشر:

' بعد مولده، وكلما مرت الأيام

يمضي انجرا مينو بعيدا

---

[1] نقل هذه الرواية بليني في كتابه ' التاريخ الطبيعي ' ، حيث قال ما يلي :

' إن زرادشت هو أول كائن بشري – ولد وهو دائم الابتسام. وقد ذكروا أيضا أنه كانت تصدر عن مخه نبضات بلغت من القوة بحيث تدفع اليد التي تلمس جبهته، وتلك نبوءة بحكمته '.

[2] ياسنا ، 13 ، 93 ، 94 ، (ترجمة الدكتور دهالا) .

بعيدا عن هذه الأرض الفسيحة

الكروية التي تغيب أطرافها في اللانهاية

وحينئذ، يعوي انجرا مينو الذي يعرف الشر

يعوي ذلك القابل للفناء:

لو اجتمعت الملائكة كلها

لما اضطرتني إلى فعل شيء لا أريده

لكن زرادشت وحده – القادر

على قهري، حيثما مضيت'

'هو الذي يرميني بالكلام المقدس، بسلاح كأنه صخرة بحجم المنزل، ويحرقني باستقامته وكأنها المعدن الذائب، وهو يقدر على هذا وأكثر منه. فالأجدر بي أن أغادر هذه الأرض، هو وحده القادر على طردي، إنه سبيتاما زرادشت [1].

الاتصال بالرب

كان عالما عجيبا ذلك الذي وجد زرادشت فيه نفسه. فقد عمت الفوضى في تلك الفترة، وغلبت الخرافة المعرفة الحق، وقهر السحر الإيمان الصادق، وأنزلت الآلهة الزائفة الرب الحق عن عرشه، وغزا مملكة الرب الدعاة إلى روح الشر.

---

[1] ياسنا ، 17 ، 19 ، 2. / (المصدر السابق) .

وفـاض قلـب زرادشـت بـالعطف والجـوى علـى أبيــه الســماوي. وسكنت روحه رغبـة عارمـة في تـأمل الـرب، والتحـدث إليـه، وملامسته بيـده، والقيـام علـى خدمتـه، وإعـادة تشـييد مملكتـه علـى الأرض، ولكـن مثل هذه المهمة لا تلائم رجلا منصرفا إلى مشاغله اليوميـة، ولئـن أراد زرادشت أن يكون رسول الـرب إلى عباده، فعليه الاقتراب منـه ليكشـف له الكلام الإلهي الحق.

وفي سن الخامسة عشرة اعتزل العالم، ذلك العالم الذي قال عنه أحد النساك: 'إنك لا تجد فيه رجلا عدلا، ولا رجلين، ولا ثلاثة رجال، ولا عددا منهم'. فأمضى في التأمل سنين عددا يترقب بشوق أن يوهـب نعمة رؤية الأب السماوي رؤية روحية ويتواصل معه، فـأين مضـى، وأي عذاب لاقى؟ لا التاريخ ولا الخرافة يسعفاننا بجواب وكل مـا أتيـح لنـا أنه أمضى الأعوام منعزلا في القفـار الموحشـة – بعيدا عـن كل النـاس، مغـذا السير في وعـورة البـلاد الضائعـة، وحيـدا مـع الطبيعـة، منفـردا بأفكاره، وجها لوجـه مـع حقيقـة الأشـياء. مجذوبـا بتـأملات عميقـة، لا تفطن إليه بقية الجنس البشري الغارقة في سباتها. وهو يقظان وحده، يكابد لغز الكون الأبدي، ويعالـج سـر الوجـود الفسـيح. هنـاك، في معبـد الطبيعـة، كـان هـذا البـاحث عـن الحق، المتوحـد عـن النـاس، يرفـع إلــى السماء يد الضراعة مناديا اهورا مـزدا، ذاك الـذي يعمـر الفضـاء كلـه، يرجوه أن يدعوه إليه، ويسـأله أن يمـن عليـه بلقيـاه، وإن برهـة خاطفـة، لعله يسمع من فمه سر الحياة الغامض:

'مولاي! أرجوك، قل لي ما الحقيقة: من كان أول من أبـدع قـانون (آشـا)، ومن كان أبوه؟ من ذا الذي مهد سبيل الشـمس والكواكـب؟ ومـن قدر القمر منازل؟ أيها الحكيم الأوحد، تلك وغيرهـا أشـياء أصبو إلـى معرفتها!'.

'مولاي! أرجوك، قل لي ما الحقيقة: من ذا الذي يمسك الأرض والسماء أن تميدا؟ ومن خلق الماء والنبات؟ ومن أسرج خيول الريح والسحاب؟ أيها الحكيم الأوحد! من خالق روح الخير (فوهو مانو)؟

'مولاي! أرجوك، قل لي ما الحقيقة: من ذا الذي أبدع الأنوار والظلمات؟ ومن وهب النعاس واليقظة؟ ومن خلق الصبح، والضحى، والليل، وكل المظاهر التي تذكر الإنسان بواجبه؟

وأخيرا، حين مضه الشوق إلى رؤية اهورا مزدا، وأضناه الوجد إلى الطلعة البهية، وشغلاه عن كل رغبة سواها، تجلى عليه (فوهو مانو) المجسد لروح الخير، وسمح لروحه بالدخول في رعشة مقدسة، بحضرة اهورا مزدا نفسه، فتضرع إليه قائلا:

'أقبل علي، ادن مني، أيها الأفضل، يا اهورا مزدا! أنت بجلال ذاتك، أبصرك، يا روح العدل والصلاح، ولسوف أشدو باسمك حتى يتجاوز الأرض التي يسكنها قومي، وتتجلى أوامرك المهيبة علينا وتبرز بكل بهائها'.

وإليكم العبارات التي تحكي قبول ذلك الدعاء:

'لقد عرفت أنك المنعم – يا مولاي الحكيم، حين رأيتك خالقا للحياة، وأمرت أن تثاب الأعمال، وتجزى الأقوال، إن شرا فشر، وإن خيرا فخير، وذلك بفضلك في نهاية الخلق'.

ومنذ ذلك الحين استنار فكره، واتصلت روحه بالرب، وأحس أن قبسا من نور اهورا مزدا يتعاظم شيئا فشيئا، فيدغم فيه وفيما حوله. وبفضل هذه الإشراقة الربانية استطاع أن يقرأ الآيات في الحجارة، ويقرأ الكتب عبر المياه المتدفقة. ورأى الطبيعة كلها حافلة بنبضات تخفق متحدة مع رسالة الأمل التي خطتها يد أهورا مزدا ذاته على

النبات والشجر والحجارة والرمال، وعلى مسايل الأنهار، وعلى ذرى التلال. وأضاءت الحقيقة في ذاته، وأباحت له الحياة أسرارها، وغدا البشير باهورا مزدا مهيئا ليعلن على الإنسانية رسالة الأمل. فعاد إلى بيت أسرته عامرا بالغبطة، لإعداد رسالته، ونشر هذه الحقيقة العميقة التي فضله الخالق بها. وعزم أن يضحي بكل شيء، حتى لو كانت حياته، في سبيل اهورا مزدا.

إن ظهور هذا النبي والمحرر الموهوب، لا يمكن أن يحدث دون أن ينزعج له روح الشر انجرا مينو، فقال له: 'يازرادشت المقدس!

لا تدمر مخلوقاتي، وتخل عن ديانة الحق، عبادة مزدا، تكن لك ثروة مثل تلك التي ملكها الضحاك (ابن فدهاغنا)، حين غدا سيد الأمم'.

فأبى النبي بكل شمم، هذا العرض المغري، وهتف به:

كلا! كلا! لن أترك دين مزدا الحق الذي أعبده، ولو فارقت روحي جسدي'.

كفاح وظفر

انقضت سنوات عشر دون أن يهتم بهذا النبي أحد من أصحابه أو أقاربه. ورموه بالكفر وبالسحر، فمضى هائما على وجهه دون أن ينضم إلى ديانته أحد. وأهمله أهله، وتخلى عنه أصحابه، وألحق به أعداؤه الأذى، وطارده دعاة روح الشر في كل مكان. هنالك توجه إلى خليله العلوي، ودعاه سائلا:

'إلى أي بلد أتوجه؟ وأين أمضي؟

وقد هجرني أهلي وأشراف قومي، أهذا قدري

لا أحد يحبني، لا قومي

ولا حكام البلد الأشرار

أهي مشيئتك يامزدا أهور؟

أعرف، يامزدا، لم أصابني الخذلان

فلا القطعان أملكها، ولا الأصحاب تتبعني

وأهتف إليك في شجني، أهورا، لا تضيعني! وانجدني، مثلما ينجد الصديق صديقه

واكشف لي، بالصلاح، عن كنوز الروح الخيرة"[1]

في خاتمة المطاف تبعه رجل. فدخل دينه ابن عمه "ميدهيوناه"، وكأنما هو القديس يوحنا، بالنسبة إلى الزرادشتية. ولكن أصمت العامة آذانها عن سماعه، ويستحيل أن تسمعه العامة إذا لم تصغ إليه الطبقة الراقية في البلاد. لذلك عزم على الرحيل باتجاه الشرق، واتخذ طريقه إلى "بكتريان" التي يحكمها "فيشتاسبا". ولم يكن اجتياز عتبة القصر الملكي ميسورا، حتى على من اتصل بالرب ملك الملوك. فانتظر بصبر دائب الإذن بالمثول بين يدي الملك. وكان يوما بهيا يوم أدخل النبي على الحضرة الملكية. فاستقبله الملك بعطف، وسمح له أن يعرض عقائده على الأشراف وأهل العلم الذين يعيشون في بلاطه. بل لقد حدث أمر جلل: وهو أن الرسالة قد أثرت في الملك بحيث اعتنق ديانة النبي أمام الملأ. فبعد أن كان له حواريه يوحنا كما لدى

---

[1] ياسنا، 46، 1، 2 ة (ترجمة الدكتور دهالا) .

النصارى، ها قد أصبح له قسطنطينه أيضا [1]، وهذا انعطاف حاسم في تاريخ تلك الديانة. وبعد الملك اعتنقت الملكة ورجال الحاشية هذه الديانة.

هناك أصبح الطريق ممهدا أمام الداعية العظيم.

ما إن استقرت ديانته حتى انتشرت بسرعة بالغة في أنحاء إيران وما جاورها من البلاد. ولكن، لا تحسبن زرادشت الذي يدعو إلى عقيدة جديدة، لم يلاق عنتا وهو ينكر العقائد المبتدعة، والخرافات، والعادات الفاسدة التي ذاعت هناك. لأن انتصاراته المتوالية قد أنذرت بالكارثة الزعماء، والكهنة المنافقين الذين استغلوا جهل العامة وسذاجتهم.

فما زالوا يمكرون حتى سجنوا النبي بتهمة السحر. ولم يكن السجن ليرهبه، لأنه لم يكن فيه وحيدا. فقد كان يساكنه فيه اهورا مزدا، ومن كان بصحبة الحضرة الربانية فلا شيء يزعجه، أو يرهبه، أو يناله بأذى. وعلى العكس من 'بوذا غوتاما' الذي أولى ظهره لهذا العالم الذي لا مطمع له فيه، وحث مريديه على إتباعه، فإن زرادشت قد واجه متاعب الوجود، وتحمل بروعة عذاب السجن، دفاعا عن عقيدته. وانتهى به الحال إلى الخروج من محبسه، فكرس دعوته لمحاربة جلاديه الذين تدعوهم نصوص الأفستا باسم 'كافيس' (Kavis) و 'كربانا' (Karpana).

---

[1] نلاحظ أن المؤلف يجد تشابها بين بداية الدعوة الذرادشتية والدعوة النصرانية فيشير الى أول مؤمن بها يوحنا) وأول مؤيد لها من ذوي السلطان (قسطنطين) الذي انتشرت النصرانية بدعم منه – المترجم.

وقضى هذا المبشر بعهد تاريخي جديد، خمسين عاما في نشر رسالة اهورا مزدا بكل كد واجتهاد. واستطاع أن يجمع من حوله جماعة يتزايد عددها من المريدين المخلصين، والأتباع المتحمسين، حتى توطدت دعائم ديانته، هنالك انسحب من هذا العالم وله من العمر سبعة وسبعون عاما. وقد لقي مصرعه جنديا محاربا، وبذل روحه غالية وهو يصلي في معبد النار. وتذكر بعض الوثائق أنه قد قتل وهو يدافع عن المعبد حين هاجمه الأعداء، وإنها لميتة جديرة بمن عاش يناضل عن قضية الحق.

الفصل الثالث

إنكار الآلهة الزائفة

لقد وصلت إلينا تعاليم زرادشت بواسطة الأناشيد المسماة الجاتات (Gathas)، وهي أقدم جزء من المجموعة المقدسة بعنوان الأفستا. ولا نجد في هذه الأغاني الموزونة جوهر عقيدته فحسب، بل تاريخ الأزمة الروحية التي عاناها، والجهد الذي بذله جسدا وروحا. وإن السرد المتعلق بحياته يبين أنه كان، قبل الدعوة إلى رسالته، قد تضرع إلى اهورا مزدا للحصول على جواب تساؤلاته عن سر الكون الذي شغله سنوات طوالا. وقد أحس، جوهريا، بأنه ينبغي للكون أن يكون عقلانيا، وأن الفكر البشري قادر على اكتشاف الطريق إلى فهم الخالق الحكيم ومخلوقاته. إلى جانب هذه التساؤلات التي طرحها النبي وما تلقاه من أجوبة، ذكرت أناشيد الجاتا جملة من الخطب والمواعظ صيغت لإرشاد السامعين، المؤلفين من أناس متعلمين ومثقفين، توافدوا إلى 'بكتريان' من جميع أنحاء البلاد ليسمعوا مواعظه. وترمي مواعظه كلها إلى دعوة قومه إلى نبذ عقيدة ديفا، قوى الشر، والخضوع لأهورا مزدا وحده، وترك الشرك وعبادة الأصنام الشائعة في زمانه.

تسامح مثالي

إن ما يجذب انتباهنا، لأول وهلة، الطابع العقلاني الرهيف في

تعاليم زرادشت، فهو ينشد أمام الناس أماديح المولى القدير، ويشدو بأناشيد روح الخير. ويحض كل إنسان، ذكرا أو أنثى، على اختيار عقيدته: 'يا أحفاد أولئك الأمجاد! انهضوا كي تسيروا معنا'. وبالعبارات الموجزة من خطبه، يذكر العامة بالحس السليم، والفهم الصادق[1] ويحث مريديه على ألا يثقوا بأية شريعة أو عقيدة، ولا يخضعوا لها خضوعا أعمى يخالف العقل، بل يدعوهم إلى 'فوهو مانو' الفكر المنتظم، الصالح، المتوثب، الصادق. وأن يقبلوا تعاليمه أو يرفضوها بعد اختبارها وعرضها بأناة على كل البراهين المؤيدة والمعارضة:

'أصغوا بأسماعكم إلى أفضل القول، وليختبر فكركم العقائد التي اخترتموها. وليفكر كل واحد منكم، ذكرا أو أنثى، لنفسه'.

أما بالنسبة إلى موقف هذا النبي الشديد التسامح، من ديانة قبيلته، فإن الدكتور غور يشير – وهو على حق – إلى أن زرادشت لم يحاربها إلا إذا اجتمعت على فساد. وكان يحرص على تحقيق الإصلاح فحسب، ويحث على التضحية، وترسيخ الصالح من التقاليد القديمة تلك التي أظهر له النور الداخلي أنها الحقيقة وحدها"[2].

والمؤكد أنه كان يريد إقناع العامة بأنه ينبغي للعقيدة التي يعتنقونها أن تكون أفضل العقائد، ولكنه يتسامح مع بقية العقائد ما دامت بعيدة عن الشرك. ولم يصفها بأنها كاذبة. فالكتابات الزرادشتية تصفها بأنها أديان أحسن من غيرها، ولكنها إذا قورنت بالزرادشتية، فالزرادشتية هي أفضلها. ولا نجد في هذه النصوص أثرا لاعتراض

---

[1] ياسنا ، 3. .

[2] أنظر : " The philosophie of the Good life " الفصل الثاني ، ص : 37 .

على أولئك الذين لا يتبعون عقيدة النبي. ولا توجد إشارة إلى أن الصالحين وأهل التقوى هم أتباع زرادشت فحسب. إنه على العكس، يعترف صراحة بأنه توجد حتى خارج معتقدهم، التقوى الجديرة بالتقدير. وتقدم لنا 'فرافردين ياشت' (Fraverdin yasht) قائمة طويلة بأسماء الناس النابهين بفضائلهم وتقواهم، عاشوا من قبل، سواء في تلك البلاد أو غيرها وهذه بعض العبارات التي تشير إلى أفكارهم، ليقتدى بها:

'إننا لندعو إلى أفكار الصالحين، من رجال ونساء، حيثما وجدوا، و إلى أفكار أولئك الذين اتبعوا في الماضي الدين القويم، والذين يتبعونه اليوم، والذين سيقتدون بهم في مستقبل الأيام'. إنها لثقة باهرة في قوة الحق، كما بشرت بسدادها عقائد زرادشت. وإنه لتسامح عظيم في زمن لا وجود فيه لحق سوى حق القوة. وكان بإمكان النبي الذي تدعمه سلطة الملك 'فيشتاسبا' أن ينشر عقيدته بالقوة. ولكن تسامحه دليل على روعة ديانته، وبرهان على عظمة النبي الذي ينشرها.

عقيدة الإيمان

إن الإيمان بإله متعال يقتضي طبعا، إنكار تعددية الآلهة الزائفة التي عمرت الإيمان القديم. ومن ثم، فإن الشغل الشاغل هنا، هو الاعتراض الحازم على جملة هذه الآلهة. ويقتضي هذا قطيعة تامة مع الديانة الإيرانية الأكثر بدائية، ومع محفل آلهة الديفا وأضاحيها من الحيوان. وإن قواعد الإيمان التي يدعى الزرادشتي إلى اتباعها، موجودة في الجزء الثاني عشر من الياشنا المسمى 'ها' (Ha). وإليكم ترجمتها بتصرف:

'ألتزم بمبدأ تحطيم الآلهة الزائفة 'الديفا'، وأقر بأني من المؤمنين بمزدا (كلي العلم) كما قال به زرادشت. وإني لأكفر بتلك الآلهة الزائفة وأتبع شريعة أهورا. هذا الكون كله أعزوه إلى الحكيم، والطيب أهورا مزدا، الطاهر، ذي الجلال. لأن الأرض وقبة السماء المرصعة بالنجوم، ملك يمينه. وأرفض الخضوع لسلطة الآلهة الزائفة، الشريرة، المفسدة، المسارعة إلى الأذى، الأكثر بشاعة، والأكثر خداعا، والأكثر مكرا في الوجود. وإني لأكفر بالسحر، وكل أعمال الشعوذة، وأنكر سيادة الآلهة الزائفة وكل مؤمن بها بأفكاري الصادقة، وأقوالي، وأفعالي وشهادة سري. هكذا تكلم اهورا مزدا إلى زرادشت في مختلف أحاديثه معه، وهكذا عاهد زرادشت أهورا مزدا في تجلياته عليه، بأن يكفر. وهكذا عاهد 'فيشتاسبا' (Vistaspa)، و'فارشواسترا' (Farshoastra)، و'جماسب' (Jamasp) على إنكار سيادة الآلهة الزائفة. وإني لهم من التابعين'.

بهذه الطريقة، ينتظر من كل كيان أن يغدو جنديا من جنود النور، يحارب من أجل الخير قوى الظلام والشر. وقد عرض الكتاب الأوربيون حتى تاريخ قريب، الزرادشتية باعتبارها ديانة ثنوية بسبب مجموع أفكارها عن الصراع الدائب بين الخير والشر في النظام النظري لفلسفة زرادشت، وعلى الأخص، بسبب عدد قليل من النصوص الموثوقة. وإن مثل هذا المفهوم مرده إلى جهل العناصر الأولية للاهوت في الآفستا. ولا تقع مسؤولية هذا الخطأ على هؤلاء الكتاب، بل على أولئك المؤلفين الزرادشتيين المتأخرين الذين غابت عنهم التعاليم الأصلية لنبيهم، فخلطوا بين فلسفته ولاهوته، وأوجدوا الاعتقاد بروح الشر ندا لأهورا مزدا.

ليس في هذا العالم شعب أصابته صروف الدهر كما أصيب به البارثيون، أو تعرض للنهب كما تعرضوا له، فحرموا من كتاباتهم المقدسة. ذلك هو قدر هذه الجماعة القليلة، الباقية من عرق كان في القديم، قويا. وليس هناك كتاب مقدس لقي من التحريف والتبديل، والتشويه ما لقيته الأفستا. ومهما يكن الحال، فإن الأبحاث الحديثة التي أجراها علماء أوربيون وزرادشتية قد أثبتت أن لاهوت سبيتاما زرادشت، قائم على التوحيد الخالص، وأن مفهومه لأهورا مزدا، الموجود المتعالي، يتماهى تماما مع مفهوم 'الإلوهيم' (Elohim) أو 'يهوه' (Yahve)، كما نجده في أسفار العهد القديم. ولئن ذكر روح الشر، باعتباره كائنا مشخصا، فما ذلك إلا من وجهة مجازية عن حقيقة عميقة، تتعلق بوجود الشر. وإذا فسرناه باعتباره دلالة على الثنوية، فلن يبرأ حينئذ، أي دين من الأديان من هذه التهمة. يقول الدكتور ويست: إذا كان الاعتقاد بأهريمن، كفاعل للشر، يجعل من ديانة البارثيين ديانة ثنوية 'فيصعب علينا أن نفهم كيف أن الاعتقاد بوجود الشيطان، فاعل الشر، لم يجعل من النصرانية دينا ثنويا أيضا'[1].

مدخل إلى النصوص البهلوية

الفصل الرابع

أهورا مزدا

'أهورا مزدا، بحق روحك التي هي دوما ذاتها'. هكذا تسلم الجاتا على روح كلي القدرة، سيد الخلق الموجود الأعلى الواحد المنزه عن كل تبدل عبر الأبدية [1].

وقد استعار زرادشت من الديانة القديمة اسم مزدا ليطلقه على الرب، ووضع أمام هذا الاسم صفة أهورا، ونتجت عن هذه الإضافة: أهورا مزدا، السيد الكامل الحكمة، الحاكم العظيم، خالق الكون. والكون كله يحكمه الرب، ولذلك يدعى أهورا. وكل ما في الكون، وكل ما يحدث فيه مخلوق أو معدوم بواسطته ولذلك يدعى مزدا، الحكمة الكاملة. ويرتبط اهورا مزدا ارتباطا شديدا بقوى الطبيعة، ولكن لا شيء يدعونا إلى الظن بوجود توجه حلولي. لأن سيد الخلق، والكون المخلوق يتميز أحدهما عن الآخر تماما. فأهورا مزدا يتعالى على القوى البشرية كما يتعالى على قوى الطبيعة، فهو الذي خلق هذه القوى، ويسيرها، ويتحكم فيها.

الخالق وتجسيم القانون العادل

آشا' أو قانون الحقيقة، أو قانون الأخلاق، تستعمل هذه الكلمة

---

[1] ياشنا ، 31 ، 7 .

غالبا، باعتبارها أحد أسماء الألوهية السامية. في الأفستا – غير الجاتية – يذكر 'آشا فاهستا' من بين أسماء اهورا مزدا. والمقطع الثاني من الياشنا يتوجه إلى خالق يدعى آشا مزدا أهورا 'هذه العقائد التي تجب علي ممارستها، وهذه الأعمال المتضمنة في هذه العقائد، وهذه الأشياء التي أراها مقترنة بالعقل، هي جديرة بالنيرات، والشموس، والفجر الذي يزجي نور النهار، كل هذه الأشياء تسبح باسمك، يا آشار مزدا أهورا'. وبذلك يكون الموجود، الواحد، المتعالي، والسيد الكلي المعرفة، والخالق حاكم الأكوان، هو نفسه ممثلا باعتباره تجسيما للقانون العادل.

وإليكم نصا آخر، حيث يعبر عن هذا المفهوم بوضوح أكثر:

'لا ينبغي لنا أن نغضبك يا اهورا مزدا، ولا نغضب آشا (القانون)، ولا فاهيستا منانه (أفضل العقول)، التي نسعى إلى فهمها بالأدعية التي نرفعها إليك'.

يقول زرادشت في مقطع شعري مشهور من مقاطع الجاتا، حيث يدعو الرب مزدا، ويصفه بمختلف قدراته:

'حين عبرت خاطري أول فكرة عنك يامزدا، رأيتك صادقا، وكأنك أول خالق في الكون، وكأنك أب العقل (روح الخير)، وكأنك خالق قانون العدل (الاستقامة)، وكأنك المتحكم في أفعال الإنسانية'.

التنزيه عن الجهات المعلولة بالزمان والحيز

سنرى أن الرب، على هذا المظهر، لم يكن يعتبر تجريدا. فالجاتا تضفي عليه سمات الوجود الفعال، الحي، والموجود الأبدي الذي لا يدرك إلا بالذهن، ولكن سلطته على الكون جلية للجميع، ولذلك تبغي

خدمته وعبادته. إنه الصانع الماهر، أو العامل، ومنه تصدر كل الأشياء إلى الوجود وتتخلق. الأوسع مما في الكون من سمة، والأقدم مما في الكون من قدم، يقيم في الذروة العليا بين الكائنات السماوية، في أعلى السماوات. لا أحد ولد قبله، وليس له مثيل، إنه الأول، المقدم، المنزه عن حدود الزمان والحيز، وهو لا يحول (هو نفسه على الدوام). الموجود الأكثر كمالا. والمحرك لكل أمر، هو الذي قدر الأعمال الخيرة في ملكوته لمن عاشوا حياتهم طبقا للعقل والحقيقة. هو الذي يقدر النصر للجيوش المتحاربة، ويقدر الخير والشر، وكل الأشياء تصدر عنه وبه، وهو سيد الأشياء جميعا.

هذا المفهوم عن أهورا مزدا، بمعنى الوجود المطلق، وعلى صعيد التجلي باعتباره الخالق، الحاكم، حافظ الأكوان، بلا صورة، كلي الحضور، كلي العلم، بلا بداية ولا نهاية. وهو كل في واحديته، متعال على الكل — هذا المفهوم يثير بعض التشابه مع فكرة 'اللوغوس' لدى القديس يوحنا. وأهورا مزدا أول مولود انبثق عن زمان بلا حدود (Zrvana)، ولكن لا يحده الزمان، وقد وجد منذ الأزل في الزمان غير المحدود. وإليكم ما يقوله النبي في الجاتا:

' ياأهورا! أعلم أنك القدوس الأحد، حين أراك أولا في خلق الحياة، وحين تجزي على الأعمال والأقوال بما تستحقها، الشر بالشر والخير يجزى بالخير، بقدرتك، وحين أراك في نهاية العالم الأخيرة'.

'أطلب منك شيئا واحدا: قل لي ياأهورا! أفي الحق أنه في بداية الوجود الأسمى تكون المغفرة ثواب الراغب فيها. هو النبي المقدس، لا ينتهك المحرمات، بفكره وهو صديق يبرىء الوجود'.

'أطلب منك شيئا واحدا: قل لي ياأهورا، أفي الحق أن ما ينبغي لي إعلانه هو الحقيقة فعلا. وهل سيدعمني آشا (الاستقامة) وأعماله

في الآخرة؟ وهل أسند إليك 'فوهو مانو' السلطة؟ ولمن خلقت هذه الديانة التي تنتج الفرح؟

'أطلب منك شيئا واحدا: قل لي ياأهورا، أفي الحق أن هذه الديانة التي هي أفضل الأشياء الموجودة يمكنها أن تشيع الازدهار في كل ما أملكه بالتوحد مع آشا؟ هل نحافظ بالاستقامة على هذه الديانة التي نؤمن بها من خلال أقوال أرماييتي (Armaiti) 'التقوى' وأعمالها، مزهوة بالرغبة في كل الأشياء الفاضلة، يامزدا؟

'أطلب منك شيئا واحدا: قل لي يا أهورا، أفي الحق أنني أستطيع أن أجعل البهتان (Druj) بيد آشا، وأصرعه بأقوال علمك، وأنتج قوة مدمرة بين الأشرار، وأسلط عليهم الهموم والشجن، يامزدا!

'ما يزال لدي المزيد من القول، فليسمع وليصغ القاصي والداني وكل من يريد المعرفة، واحفظوه الآن في ذهنكم، لأنه قد صار جليا. إن العالم الزائف، أي الشرير، لن يدمر أبدا الحياة مرة ثانية بأن يضل الناس عن سواء السبيل، بعقيدته الفاسدة ولسانه المخادع'.

'سأعلمكم بما هو الأفضل في هذه الدنيا. إن مزدا – بوساطة آشا – يعرف كل المخلوقات التي أبدعها. إنه أب فوهو مانو (روح الخير). وأرمايتي هي ابنته بأعمال الخير. وأهورا البصير بكل أمر، لن يخيب رجاؤه' (45\ 4).

'أريد أن أتكلم عما أوصاني به قدس الأقداس على أنه أفضل الأعمال التي يجب على الإنسان إتباعها. قال أهورا مزدا: 'إن الذين يتبعون زرادشت بأمري ينالون الحسنى ودار الخلود، بأعمال روح الخير' (45\5).

'أريد أن أتكلم عنه، هو الأعظم من كل شيء، وأمدحه باسم آشا، وهو ذو الفضل على كل ذي حياة. وحق روح القدس الذي أصغى إليه مزدا أهورا، وبالصلوات التي علمنيها فوهو مانو، بحكمته. هو الذي علمني ما الأفضل'(6\45).

فلا نجد شيئا فاحشا، أو منافيا للأخلاق، يتصل بطبيعة الموجود الأعلى، أو بعبادته، وهاهنا مكمن الروعة في هذا النظام اللاهوتي. ومهما كانت صورة الشر فإن الرب يستنكره. فالشر، السلبي والايجابي – لا يعكر طبيعته النقية، لأنه هو الصلاح بذاته.

أسماء أهورا مزدا على اختلافها

في الـ 'هورمزد ياشت' (Hormazd Yasht) المؤلف خصيصا لمديح اهورا مزدا،

نجد تصريحا يتصل بمختلف الأسماء للخالق، منقوشة في مخلوقاته ذاتها.

'قال زرادشت: قل لي ما اسمك الأعظم، الأفضل، الأبهى، الأقدر على دحر الديفا، والأقدر على الشفاء، والأقدر على تدمير مكر الديفا ومكر البشر ..'

فأجابه الرب اهورا مزدا:

'اسمي الأول: ' أنا الموجود'، أيها القديس زرادشت.

' اسمي الثاني: الذي يهب القطعان.

' اسمي الثالث: القوي.

' اسمي الرابع: القداسة الكاملة.

' اسمي الخامس : كل الخير ، خلقه مزدا ، سلفا للمبدأ القدوس .

' اسمي السادس : الفهم .

' اسمي السابع : الذي يملك الفهم .

' اسمي الثامن : المعرفة .

' اسمي التاسع : الذي يملك المعرفة .

' اسمي العاشر : البركة .

' اسمي الحادي عشر : الجالب للبركة

' اسمي الثاني عشر : أهورا (الحكيم الكامل) .

' اسمي الثالث عشر : أفضل صانع للخير .

' اسمي الرابع عشر : المنزه عن الخطأ .

' اسمي الخامس عشر : من لايقهر .

' اسمي السادس عشر : من يقضي بالعدل .

' اسمي السابع عشر : البصير بكل أمر .

' اسمي الثامن عشر : الشافي .

' اسمي التاسع عشر : الخالق .

' اسمي العشرون : مزدا (الكلي المعرفة) ' .

ونجد في بعض الكتب المعدودة من ضمن 'البهلوي بازند'، ألقابا أخرى، منها على سبيل المثال: السامي، الكلي العلم، الكلي الحضور،

الحاكم على كل شيء، الرب الأعلى، الكل في الكل. وقد وضع الدكتور مودي قائمة من أربعة وسبعين اسما لعدد صفاته وقدراته باعتباره سيد الكون، كلي الوجود، كلي الحضور، كلي المعرفة[1].

ويوجد في 'الدينكارد' (Dinkard) نص ثناء خاص، يستحق أن نذكره:

'الحاكم لا المحكوم، الأب الذي لم يلد، الموجود بذاته ولم يولد، السيد لا العبد، الرئيس لا المرؤوس، الغني غير المحتاج، الصلد الطاهر، الذي يملك في ذاته المعرفة الحية، ومن غير وساطة مهما كانت. المالك لا المملوك، المنعم الذي لا ينعم عليه، واهب الخيرات للناس ولا يوهب له، المعين الذي لا يطلب العون، الذي يقدر الناس ويعلو على تقدير الغير له، المسير لا المسير'.

وكل اسم من أسماء الخالق هو سحر بذاته. وكل من حرك به لسانه وتأمل في صفاته حمى نفسه من هجمات الشر. وقد طلب اهورا مزدا من زرادشت نفسه أن يسبح بهذه الأسماء:

' إذا أردت يازرادشت

أن تهزم كل هؤلاء الأشرار الحاقدين

وتبعد حقد العفاريت، وحقد الناس

حقد السحرة، وحقد الساحرات

والماكرين المخالفين للشريعة

والهراطقة الذين يمشون على قائمتين. الكاذبين

[1] أنظر ' حكم مختارة من كتب الزرادشتية ' .

الذئاب بأربع قوائم، والجيوش الجرارة

الرافعون الرايات المضرجة بالدماء

- إذن، ردد هذه الأسماء وسبح بها

طوال النهار والليل .[1]

---

[1] ياشت (ترجمة مولتون) .

الفصل الخامس

نشوء الكون

الأقاليم السبعة

تتحدث الأفستا عن الأرض باعتبارها ثلاثية أو سباعية. وإن تقسيمها إلى سبعة أقاليم كشفارات' (Keshvars)، يعد تطورا عن تقسيمها الأصلي إلى ثلاثة أقاليم. والإقليم الأوسط، خانيراتا، يتطابق تقريبا مع الإقليم الأوسط من التقسيم البدائي، وكان معروفا بأنه مسكن الإيرانيين القدماء. أما إقليما الشمال والجنوب فقد انقسم كل منها إلى شطرين: إقليم الشرق، وإقليم الغرب، وأضيفا إلى الحسابات المستجدثة. وإن عبارة 'الأقاليم السبعة' في الأفستا تدل على الأرض بأكملها.

مراتب الخلق

الكواكب، والشمس، والقمر، والبحر، وكل الأشياء في أعلى الكون وفي أدناه هي، بلا ريب، من خلق اهورا مزدا ذاته. وهي تعمل طبقا لقوانينها، وإنما توجت أعمال الخلق كلها بخلق الإنسان. قال اهورا مزدا: 'يازرادشت! لقد خلقت النجوم، والقمر، والشمس، والنيران المتأججة الحمراء، وخلقت الكلاب والطيور، وأجناس الحيوان الخمسة، ولكن أحسن خلقي وأعظمه كان الإنسان العادل'.

وكانت رغبة اهورا مزدا أن تستخدم قوته، وحكمته، ورحمته في هذا العالم لإشاعة السعادة والفرح في الإنسانية. ولكي يجعل الإنسان قادرا على أن يؤدي في هذه الحياة الدنيا دورا جديرا بالحمد، ولكي يهيىء له الأسباب ويتمتع بنعيم الحياة الآخرة، فقد أبدع اهورا مزدا هذا الخلق. ومنذ ذلك الوقت بدأت الدورة الكونية الحالية.

طبقا للأفستا الأحدث، فإن الكائنات الروحية أو غير المرئية قد خلقت أولا. وجاءت بعدها المخلوقات المتجسدة أو المرئية، وهي: السماء والمياه والأرض، ثم عالم النبات وعالم الحيوان، وآخر هذه الكائنات: الإنسان. وأول ما خلق الذرات والجزيئات التي أضفى عليها شكلا. وإذا تتبعنا أثر كل ظاهرة في الكون، فإنها ترقى إلى الخالق، الأب الكوني. وكيفية حدوث ذلك نجدها في السؤال الذي طرحه زرادشت على سيد الكون وفي الجواب الذي تلقاه منه، وإليكم كيف روت الفنديداد هذه المحاورة:

'أنت، يا مبدع العالم المادي، أنت القدوس الأوحد (اهورا مزدا)، أحق أنك احتجزت المياه خارج البحر (فورو – كاشا) بالريح والسحاب؟ وأنك أنزلتها في الدخمات وأنك أنزلتها في المستقرات الدنسة وأنك أنزلتها حتى العظم؟ وأنك أجريتها بعدئذ، نحو بحر بويتيكا؟

فأجاب الرب مزدا: 'الأمر كما ذكرته تماما، يازرادشت الصادق، فقد احتجزت المياه خارج البحر (فورو – كاشا)، بالريح والسحاب، ووهبتها أجراما وأنزلتها إلى المستقرات الدنسة، وأجريتها، خفية، نحو بحر بويتيكا'.

الفصل السادس

السبعة الخالدون

'نحن نعبد الأخيار، الأقوياء، المحسنين، الأرواح الحامية للحق، المحسنين الخالدين (أميشا – سبنتا)، الذين يحكمون بثاقب بصرهم، الذين يملكون السلطة العليا، السريعين الأحياء، المخلصين أبد الدهر. إنهم سبعة في فكرة واحدة، سبعة في قول واحد، سبعة في فعل واحد. لهم الفكر ذاته، والقول ذاته، والأفعال ذاتها. وسيدهم ومولاهم واحد، هو الخالق اهورا مزدا' (فرافردن ياشت، 22، 82).

إن مفهوم الكائن الأعلى المجرد تجريدا تاما، لا يرضي تطلعات القلب الإنساني. فهو بحاجة إلى شيء ملموس، يستطيع الارتباط به. لذلك يلجأ الأنبياء والمبشرون إلى تجسيد الأفكار والصفات المجردة أو تأليهها. فالآلهة المصورة على هذه الطريقة يمكن التعرف عليهم بشكل أفضل من الكائن الأعلى. كذلك الحال في الهند، فعلى الرغم من أن أسفار الفيدا تؤكد على 'الحقيقة' القديمة والوحيدة، فإن عامة الناس تعتنق عبادة 'المشرقات'، أو تميل إليها. وهي الآلهة التي يكون الفكر الإنساني قادرا على إدراكها أفضل مما يدرك المظاهر المطلقة، المجردة للفعاليات المقدسة.كذلك الحال في إيران. فعلى الرغم من أن زرادشت لم يجعل لأي من الآلهة مرتبة تضاهي مرتبة اهورا مزدا، فإن ستا من

المحسنين الخالدين قد عبدوا معه، وكونوا سباعية من الكائنات السماوية[1].

هذه العقول الإلهية كما حددها النبي، ليست ملائكة، بل هي جزء لا ينفصل عن الكائن الأعلى. وهي تمثل صفاته الست الأكثر جلاء. فليس بوسعنا إدراك وحدة الرب دون أن ندرك التعددية ضمن هذه الوحدة. والحال كذلك بالنسبة إلى الرب الذي لن يكون قادرا على إدراك نشاطه المتعدد، المتباين، إلا إذا حقق صفاته على أفضل ما تكون من الحيوية. ولكي ترتسم هذه الصفات في عمق روح العامة، فقد ذكرها زرادشت في الجاتا، وألحقها مباشرة بأهورا مزدا، السيد الحكيم. وبما أنها ست مجردات إلهية فقد دعيت أميشا – سبنتا، أي: الخالدون العظام:

فوهو مانو: روح الخير.

آشا فاهيشتا : النظام الأفضل ، أو الاستقامة .

خشترا فايرا : القدرة المطلقة .

أرمايتي : الفكر السامي ، أو التفاني .

هورفاتات : الكمال .

أميريتات : الخلو .

ومع مرور الزمن، فإن هذه الصفات الست لاهورا مزدا التي أسبغت عليها قداسة كبرى، قد توجهت إليها العبادة الجديرة بالكائنات الموجودة في المرتبة التالية مباشرة لمرتبة اهورا مزدا نفسه. وفي الكتابات المتأخرة نجدها مصورة وكأنما لكل واحدة منها فكر متماسك،

---

[1] دهالا ، ' اللاهوت الزرادشتي ' .

وقول، وفعل. وأهورا مزدا أبوها ومولاها، وهي تقيم في السماوات العلى 'غارومانا' (Garomana). وتستخدم أسماؤها المقدسة للضراعة، فهي الأقوى، والأمجد، والأكثر فعالية من غيرها. وما إن ينطق بواحد من هذه الأسماء حتى يتم الحصول على مفاتيح السلطة.

ويوصف هؤلاء الخالدون بأنهم كائنات 'مشرقات'، عيونها براقة، مهتاجة، ساهرة، لا تفنى، عادلة. إنهم المدبرون لخلق مزدا، وهم الذين يصوغون هذا الخلق ويحفظونه، ويحمونه، ويحوطونه، ويتحكمون فيه. ومزدا هو الذي وهبهم أشكالهم البديعة. ويعقدون مجلسهم السماوي في أعالي القبة الزرقاء. وينزلون منها إلى الأقاليم السبعة التي ينقسم العالم إليها، بحسب الأفستا، ويحكمون ممالك الأرض. ويضرع المؤمنون في صلاتهم إلى 'الأميشا سبنتا' أن يزوروا مساكنهم، وأن يتقبلوا أضحياتهم، فينزلون إلى الأرض على طريق لألاءة بالنور، ليتقبلوا الخمور المهراقة إكراما لهم. وهم شركاء الشمس، يجمعون شعاع القمر ويسكبون ضياءه على العالم الأرضي. وتوصف هذه الكائنات الروحانية بالنجدة، وتساهم في إيصال العالم إلى منتهاه، بأن يضرب كل منهم عدوه، من ذكر وأنثى، يوم النشور.

زرادشت يضرع إلى الخالدين الكرام

طلب أهورا مزدا من نبيه أن يضرع إلى 'الأميشا سبنتا' على الرغم من أنه غير قادر على رؤيتهم بباصرتيه. فأطاع زرادشت هذه الأوامر، ودعاهم. فكان أول إنسان فعل ذلك. ومضى المؤمنون على إثره فسألوا 'الأميشا سبنتا' الدعم والحماية، وهذا موضوع صلواتهم. وإذا توجه بهذه الشعائر إلى تلك الكائنات المقدسة، كهنة لا قداسة لهم، فلا تحس الكائنات بالبهجة، ولا ترقى إليهم سوى صلوات أهل التقوى.

فيكشف عنهم الضر، ويبعد عنهم الأذى. وحين يتفانى المؤمن 'بأميشا سبنتا' في عبادته، يشرق ذهنه بشرارة حبه لهم. حينئذ، يكرس لهم حياته كلها، وكل ما يملكه في هذه الأرض.

فوهو مانو

حينما رأى زرادشت أن الكون تحركه، بكل حكمة، العلة الأولى العظيمة، دعاها – كما رأينا – باسم أهورا مزدا، أي، السيد الحكيم. ورأى أن عنايته تمتد إلى عالم الشهادة وعالم الغيب، لذلك أطلق على هذه الصفة اسم فوهو مانو، أي: المحسن، أو روح الخير. ونعلم في اللاهوت المسيحي أن لا انفصال بين الروح وبين الرب، كذلك الحال بالنسبة إلى روح الخير في اللاهوت الزرادشتي، ولكن التشابه يمتد أبعد من ذلك: فاللاهوت المسيحي يرى أن الروح حالة في الإنسان، وهي الجزء الإلهي منه. كذلك الأمر بالنسبة إلى الفكر الزرادشتي، فروح الخير فينا، مقيمة وهي تمثل ميزة الفكر الطيب، أو أسمى درجات الصفاء الفكري، التي يفترض أن يبلغها الإنسان. وبما أن 'فوهو مانو' أول ما خلق اهورا مزدا، فهو يشغل منزلة في المحفل السماوي، على مقربة من الرب الأعلى. وأما حكمته فتنقسم إلى صنفين متمايزين: الحكمة الوهبية (الإنية) والحكمة الكسبية. وهذان الخطان من المعرفة يستأهلان التضرع والعبادة. وقد حث اهورا مزدا النبي على طلب المعرفة في أثناء الليل، لأن الكاهن الحق ومريديه يجهدون ليل نهار، للاستزادة من المعرفة. و'فوهو مانو'، أيضا، هو العبارة التي تعني الفردوس. ثم نراه في الكتابات الزرادشتية، ملاك الفكر الطيب الذي يستقبل في الفردوس، أرواح العادلين. وهل يجد الإنسان الصالح لنفسه إقامة أطيب من روح الخير؟ وحينما يجتاز الصالحون الصراط

ويصلون إلى أبواب السماء، ينهض 'فوهو مانو' عن عرشه المذهب، ويستقبلهم بأجمل التحيات. وفي المعركة الحاسمة بين جيوش القوى المتصارعة، يصرع أعداؤه.

آشا فهيشتا

حينما لاحظ النبي أن عالمي الغيب والشهادة كانا خاضعين لقانوني النظام والعدل، أطلق على هذه الميزة السامية من العدل (الاستقامة) النظام، اسم 'آشا فهيشتا' أي: النظام الأكمل أو الاستقامة السامية، فإن قانون الكون، باعتباره نظاما ساميا، يشكل جزءا لا ينفصل عن الجوهر السامي. فآشا مرتبط بالصفاء، والصفاء (أو الطهارة) هو قلب الاعتقاد ذاته. وإن اهورا مزدا هو خالق 'آشا فهيشتا'، الأعظم، والأفضل، والأسنى، اللألاءة، صانع الخير الخالد. فهو الذي يزيل الأمراض ويهزم الموت، والأرواح الشريرة، والسحرة، والمخلوقات الماكرة. ولا سبيل تؤدي إلى حياة الخلد سوى سبيل 'آشا'، وكل الطرق الأخرى زائفة، مضللة. ولذلك فإن المتعبد يطمح إلى مشاهدة اهورا مزدا والاتحاد به، بواسطة من 'آشا فهيشتا'.

إن الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأعمال الصالحة، تجعل الإنسان مستقيما: 'أشافان' (Ashavan) . ولا يتوصل إلى الصفاء إلا إذا هذب بهذه الطريقة. فقد يحدث أن يترك السيد قطيعه ذات نهار أو ذات ليلة، أو يتخلى القطيع عن سيده، أو تفارق الروح الجسد. وأما الاستقامة التي هي أوفر الثروات وأفضلها، فإنها ترافق الروح بعد الموت.

أما عدو آشا فهو 'دروج' (Druj)، أي: الخداع، الكذب أو المكر. لذلك يدعى آشا لدخول بيت المؤمن، ليهزم دروج الشرير. ويدعو المؤمنون في صلواتهم أن يحكمهم ملك عادل، وأن يخيب سعي الحاكم الظالم ويزيل ملكه.

لم ننظر إلى آشا حتى الآن، إلا بمعنى القداسة والسمو، وبمعنى الصفاء الذهني. ولكن له معنى أكثر رفعة يجتاز به آشا الصفاء الجسدي والصفاء الروحي معا. وفي هذا المعنى الروحاني العميق يتساوى آشا بالحقيقة الأبدية أو القانون الإلهي. وإنما بوئام معه قد صاغ الرب الكون بجملته، وهو متضمن في الخلق كله.

كاشاثرا فايريا

إن عالم الغيب وعالم الشهادة تحكمهما جميعا سلطة اهورا مزدا المطلقة التي يدعوها زرادشت 'كاشاثرا فايريا'، أي: السلطة ذات السيادة المطلقة. وهي تمثل القوة الكاملة، الكلية الحضور، والسيادة الكلية للرب. وتستدعى لمساعدة الإنسان ليسلك الطريق المستقيم. وأيما امرىء يخضع لشريعة الرب يتلقى منه بركة القوة والسلطة. وفي الأزمنة اللاحقة أصبح 'كاشاثرا فايريا' يمثل السلطة العليا، أو الغنى الروحي للملكوت المقدس، بأقل مما يمثل الوفرة المادية، ويدعى باسم سيد الملكوت الكلي، والروح المهيمن على الثروات الروحية والمادية، ويدعى باسم معين الفقير وحاميه. أما بالنسبة إلى 'كاشاثرا فايرا' كملكوت الرب، فيلاحظ مولتون أن هذه الفكرة الثابتة عن ملكوت الرب قد غدت شديدة الغموض في أسفار الجاثا، وتعرب عنها لغة تصعب

ترجمتها. ولكنها تشغل المكانة المركزية بحيث لا نجد صلة أخرى أكثر دلالة منها بين ديانة زرادشت وديانة الأناجيل[1].

آرمايتـــي

إن عالمي الغيب والشهادة بكل أبعادهما، هما التجلي للحب الصالح لاهورا مزدا. وقد وصفه زرادشت باسم 'آرمايتي'، أي: الفكر السامي أو التقوى. إنها التقوى التي تطهر القلب، وبوساطتها يصبو المؤمن إلى سلوك الدرب آمنا، ليقترب من اهورا مزدا.

'لقد اخترت لنفسي آرمايتي الجليلة، فلتكن قرينتي'. ويضرع رب الدار كي تدخلها آرمايتي، وتطرد الهرطقة. وآرمايتي هي أم 'آشي فنغوهي'، أو روح الثواب الطيب على الطهارة. فإذا حضر الموت الزرادشتي التقي، فإنه يوكل أمره إلى عناية آرمايتي الرؤوم. وحينما تستقر الجثة في برج الصمت، وتباشر الطيور عملها المخرب، فإن كل الحاضرين هناك، يظهرون الطاعة لآرمايتي.

بعد ذلك، أصبحت آرمايتي تتماهى مع الأرض الأم التي تطعم كل الجنس البشري وترضعه من ثديها. فنحن نولد منها، وهي التي تغذينا، وبعد الموت نسكن في صدرها حتى نتخلص من ثوبنا الترابي ونغدو رميما.

هورفاتات و أميرتات

بما أن العلة الأولى قد اخترقت الفضاء اللامتناهي، وهي موجودة

---

[1] 'الزرادشتية المبكرة'.

دوما وسوف توجد بلا انتهاء، فإن زرادشت قد اختار لخصائصها المميزة لها الاسمين التاليين: هورفاتات أي الكلية (Totalite) أو الكمال، وأميرتات أي: الخلود، والتحرر من الموت. وهما المرافقان للكمال على الدوام. وإن هورفاتات وأميرتات متوحدان فيما بينهما، ولا تذكر الجاتا أحدهما منفصلا عن الآخر. ولكونهما خالدين، صانعي الخير فإنهما يرمزان معا إلى تمام العافية، وإلى الخلود، وهما يثيبان العادل، ويهزمان معا الجوع والعطش حينما يحتدم الصراع النهائي بين قوى الشر وقوى الخير. أما على الصعيد المادي فهما، على التحديد، المسؤولان عن المياه وجنس النبات. وتفيض بركاتهما على الجسم تمام الصحة والحيوية. ولارتباطهما بالماء والنبات فإن لهما خواص استشفائية، ولهما القدرة على منح العافية. وهذه الفكرة مثيرة حقا، لأن هاتين الصفتين من صفات الخالق مرتبطتان دوما، وتمثلان الخلاص الذي يهبه في الدنيا والآخرة. ومن يسعى إلى الغبطة الأبدية ليس بحاجة إلى تقديم الكفارة أو التقشف في هذه الدنيا. فلا يكون الخلود بالنجاة من الموت فحسب، بل يكون في البركة التي تصاحب هذه الحالة. والأمر، كما نبه إليه الدكتور شين بحق، ليس شيئا آخر سوى الغبطة التامة للجسد والروح، وهي تبدأ في هذه الحياة، وتستمر بدرجة أرقى في الحياة الآخرة[1].

ترمز 'الأميشا سبينتا' إذن، إلى صفات الواحد اللانهائي، والكائن الأبدي الذي يستقطب كل وجود عيني أو غيبي. ولا ريب أن زرادشت بهذا المفهوم من الصفات، يظهر أصالة تامة. وقد توصل إلى هذا بعد تأمل عميق، وهاهنا تكمن العناصر المميزة لعقيدته. وفي العهد المتأخر، أدى الجهل بالدلالة الحقيقية المرتبطة بهذه المفاهيم الفلسفية المجردة

---

[1] "The origin of the psalter "

تماما، أدى بالعقول إلى أن تتصور 'الأميشا سبينتا' السبعة وكأنها تشكل تراتبية من الكائنات السماوية، منها ستة كبار الملائكة أو القديسين الخالدين، وعلى رأسهم أهورا مزدا. يقوم إيمان زرادشت — كما رأينا — على الاعتقاد بإله واحد، ولكن بعد موته، لم يبق الطابع الموحد لتعليمه على صفائه وبساطته البدئيين. إن بعض الموجودات الطبيعية التي اعتبرها من مخلوقات مزدا وترمز فقط، إلى عظمة الرب وقدرته، قد أصبحت تدريجيا في نظر أتباعه مخلوقات جديرة بالعبادة لذاتها. وشاع الاعتقاد بأن كل مظهر من مظاهر الخلق كانت تحكمه روح خاصة به. وبذلك أقيمت تراتبية من 'الأميشا سبينتا' ومن 'اليزاتا'، أي: الأرواح، الخيرة الجديرة بالعبادة. وقد ظلت تلك الفكرة على الدوام غريبة عن العقائد التي بشر بها النبي قديما. والحال أن أبحاث العلماء المحدثين قد ألقت ضوءا باهرا على المبادىء الأساسية والجوهرية للإيمان التي بقيت زمانا طويلا في ظلمة حالكة من الزخارف التي حجبتها. ولقد أحال الدكتور غور إلى الاستنتاجات التي استخلصها مولتون وغيره من العلماء الثقات بعد مناقشات مطولة، وكتب يقول:

'لا مجال للتردد في الاعتراف بأن هذه الكائنات المقدسة في ديانة زرادشت، هي فقط صفات مجسدة لمزدا، وصيغ اكتساها نشاطه بين البشر'[1].

[1]-" The philosophy of Good Life " P . 41.s

الفصل السابع

المعبودون

'إنا نعبد اليزاتا الروحانيين الذين يجزون أفضل الجزاء، وهم حافلون بـ: 'آشا' (جاتا، 2 ، 6).

تحتل ((الأميشا سبينتا)) مرتبة مجاورة لليزاتا (حرفيا: المعبودين). وهي التفرقة ذاتها الموجودة في الديانة المسيحية، بين كبار الملائكة وبين الملائكة. واليزاتا فرقة كاملة، ولكن لا نجد سوى حوالي الأربعين اسما منها في نصوص الأفستا الموجودة حاليا. وأعلاهم قدرا يقابلون الأربعة والعشرين الذين ذكرهم بلوتارك[1] والحال أن عددهم المألوف، بما فيهم القديسون الخالدون – يرقى إلى ثلاثة وثلاثين وأهورا مزدا نفسه واحد من أكبر اليزاتا وأفضلهم جميعا، مثلما يشغل المرتبة الأولى في سباعية ((الأميشا سبينتا)).

ولا حصر للحسنات التي تفيض بها هذه الكائنات على الإنسانية. فهي تجمع نور الشمس وتسكبه على الأرض. ويضرع إليهم الناس ويقدمون لهم النذور مقابل أن يساعدوا عبادهم. كما يقدمون إليهم الحليب و 'الهاوما' (Haoma)، وخبز الحنطة أو 'الدراونا' (Draonah)، واللحم، وقد حاول بعض الكتاب أن يثبتوا أن نذور اللحم تناقض روح

---

[1] إيزيس وأوزريس .

تعاليم النبي. والواقع، أن النذور المذبوحة تتحو إلى الزوال من الطقوس في هذه الأيام.

على الرغم من المنزلة الرفيعة التي يشغلها اليزاتا في الهيكل الزرادشتي، فإن ثلاثة منهم فقط تذكرهم الجاتا، وهم: سراوشا ، وأتار ، وآشي .

سراوشا

إن 'سراوشا'، أول اليزاتا، روح موكلة بالإنسانية، ويتجسد فيه نمط إطاعة القانون الإلهي. ويعتبره الدكتور جاكسون إلها كاهنا. ويشخص عمله الشعائر الإلهية. وهو ينفذ بهمة أوامر الرب، وهو أول من عبد أهورا مزدا، وهو مبشر يعلم الناس، ويدعوهم إلى الخضوع الطوعي لأوامر مزدا. وهو البشير بالإيمان الحق، يتجول ناشرا العلم بالدين في العالم المادي كله. وطالما تشوق زرادشت لمجيء نائب السيد هذا، الممثل للرب على الأرض، وطالما تضرع كي تقبل إليه روح الطاعة، وإلى كل إنسان خصه مزدا بعنايته.

يحمل مسكن 'سراوشا' ألف من الأعمدة، ويشع داخله بالنور الذاتي، وترصع خارجه النجوم. وتتنقل هذه الروح الشريفة في عربة سماوية تجرها أربعة خيول بيضاء، ناصعة، أسرع من الريح والمطر والطيور المحلقة، وأكثر سدادا من السهم المصوب بإحكام. وأما سلاحها وعدتها فالعبارة المقدسة 'أهورا فايريا'، وغيرها من المقاطع المقدسة. وهي أشد الفتيان قوة وإقداما، وأكثرهم سدادا ونشاطا، وهي التي تنشر الرعب – لا يهزمها أحد ولكنها تهزم كل الأشياء.

ويوصف 'سراوشا' في نصوص الأفستا المتأخرة، بأنه الروح الذي لا ينام أبدا، اليقظ الذي يحمي بهراوته المرفوعة كل العالم المادي منذ غروب الشمس حتى طلوعها. يحميه من هجمات 'إيشما' (Aeshma) أي: الغضب المتسبب الأول في كل أنواع الاضطرابات والقلاقل، والعماء (كاوس) والفوضى. ويحميه كذلك من كل القوى الشريرة. ويهبط من السماء إلى الأرض ثلاث مرات في النهار، وثلاث مرات في الليل ليضرب روح الشر، ويعود منتصرا إلى أقاليم 'أميشا سبينتا' الأثيرية. فكل أذى يزول، ويبتعد عن البيت، والعشيرة، والمدينة، والمنطقة التي يسكنها الإنسان الصالح الذي يظن خيرا، وينطق صوابا، ويعمل صالحا ويستقبل هذا الروح بترحاب ويقدم له النذور.

كما أن (سراوشا) هو المستشار إلى جانب ميثرا وراشنو. فهؤلاء القضاة السماويون الثلاثة هم المؤهلون للحكم على النفوس المتوفاة. ويضرع زرادشت إلى هذا الروح الحارس للإنسانية، باعتباره أعظم الكائنات السماوية الذي يظهر في نهاية العالم. وكل الطقوس الجنائزية ذات علاقة وثيقة ((بسراوشا)). وتبدأ الصلاة على الميت بالضراعة إليه وتختتم بها. وفي صباح اليوم الرابع من الوفاة، تعبر روح المتوفى صراط شينفات لتدخل العالم الآخر. وقبل يوم القيامة يعرض عليه حساب أعمالها، وأثناء هذه المحنة التي تواجهها أمام اللجنة الثلاثية المهيبة، فإن ((سراوشا)) هو الذي يشهد على أفعال وتصرفات الشخص موضوع الجلسة.

آشي فنغوهي

'آشي فنغوهي' أخت 'سراوشا'. وهي قديسة موكلة بالبركة أو إثابة الأعمال، وهي المثيل المؤنث لأخيها. وتجسد من الناحية الأخلاقية

القداسة، وترمز إلى الغنى الروحي وبركة السماء، وتثيب من يتبعون القانون الأبدي ويطمعون في ملكوت الرب وعدله. وتمثل من الناحية المادية، الرخاء، والثراء الأرضيين. فهي تملأ مخازن الناس وإسطبلاتهم، وتزيد كمية الذهب في عطاياهم، وتنمي النباتات في حقولهم، وتزين بالحلي صدور الزوجات العفات، وتراكم أزهى الثياب في خزاناتهن. وهي مكلفة بالوفرة مثل ((ميثرا)) الموكل بازدهار المراعي والأعلاف. وهذه الشخصية السامية، حسنة التكوين وذات أصل شريف. تحكم على هواها وتملك المجد. وهي حامية، حارسة، منجدة، تبرىء الصالحين وتصيب الأشرار. يرجو التقي في صلاته حضورها، ويصبو إلى رحمتها. وتقفو أثر الرجل الكريم الذي يفرح الفقير بعطاياه فتملأ مسكنه ماشية، ومن الخيول قطعانا. وتزعجها رؤية العزاب. وترفض تقدمات الناس الذين ليس لهم أولاد، والنساء السيئات السمعة. وهي حارسة غيور على قداسة الزوجية، تحرص على العفة الأنثوية، وتمقت امرأة خائنة لرباط الزواج.

ميثرا

إن أعلى اليزاتا الرئيسيين شأنا هم: ميثرا، وأتار، وأرديفي ثم أسورا وأناهيتا. وهذان الأخيران يتطابقان تماما مع أشكال العبادة الزرادشتية، بحيث لا نجد ضرورة في الحديث عنهما. ونقتصر هنا على ذكر بضع كلمات حول ميثرا، هذه الألوهية الهندو – أوروبية التي شغلت الموقع المفضل في اللاهوت الزرادشتي حينما بدأت المرحلة الأخيرة من الأفستا.

كان ((ميثرا)) مرتبطا بأقدم عبادة في إيران والهند معا. وغدا بالتدريج واحدا من اليزاتا الأكثر شعبية وانتشارا. ونجد عبارات

الضراعة إلى عظمته في الشعائر الدينية الأكثر شيوعا. والعبارات الموجهة إليه تستخدم عادة، في الدعاء إلى أهورا مزدا. زد على ذلك أن السيد الحكيم يصور هنا وكأنه يعبد بنفسه ((ميثرا)). إن ميثرا هو أقوى الكائنات السماوية التي تبسط سلطتها على الأرض، والأكثر جرأة من بين هذه الشخصيات المقدامة، والأكثر مثابرة وذكاء من كل الكائنات المؤلهة، وأكثرها نصرا ومجدا. ويسير دوما على قدميه، فهو مرشد الجيوش. لديه ألف خطة للحروب، ويعمل لديه عشرة آلاف جاسوس. وهو مطلع على كل أمر. لا يمكن لأحد أن يخدعه، فهو متنبه، يقظ، مهيمن، بطل .. كذلك هو ميثرا. وهو الشخصية المتسلطة على كل التراتبية. يسمع الدعاء، ويجري المياه، وينمي الأشجار ويحكم المناطق، قواه وقدراته لا تعد ولا تحصى. وباختصار: إنه مخلوق الحكمة. ومن جملة صفاته أنه الأسرع من الجميع، والأكثر سخاء، ولا مثيل لنباهته، والرئيس الأول للمجلس. وهو يتكفل بالازدهار، ويسبب البدانة، ويمنح القطعان والملكية والذكور من النسل، ويجود على الناس بالحياة والسعادة، ويوجههم إلى التقوى. وعلى إرادته يتوقف السلام أو الحرب بين الأمم. ((وميثرا)) كذلك محارب مسلح برماح مدببة، وسهام فاتكة، وكل من أساء إليه كان مصيره الهلاك.

شركاء ميثرا

'اهورا مزدا' هو الأول، والمتزعم للجماعة التي تعمل بالوفاق مع ((ميثرا)).

وغالبا مايشار في النصوص المقدسة، إلى (ميثرا) و (أهورا) معا؟ واتحادهما قديم يرقى إلى عهد سابق على الزرادشتية، ويطابق (ميثرا) (فارونا) في (الفيدا). وكذلك يشار إلى (ميثرا) متحدا مع

الشمس المشرقة (هفار خشيتا)، لأن إحدى وظائفه الأساسية هي حراسة الضياء. والضياء له السيادة هنا على نور الشمس، باعتباره طليعة النور والمبشر بالفجر، والسابق للشمس المشرقة على ذرى الجبال. كما أن القبة السماوية الكبرى تتماهى بحلته. وقد شيد له ((اهورا مزدا)) و ((الأميشا سبينتا)) مسكنا في جبل ألبورز (Alburz) لا يدخله الليل ولا الظلمات ولا الريح الباردة ولا الريح الساخنة، ولا المرض ولا الموت. ومن علياء فردوسه يتأمل ((ميثرا)) العالم كله بلمحة عين. ولا شيء يخفى على بصره الثاقب. ويطرد نوره الظلام بكل ما يرتبط به من إثم وشر.

حامـــي الحقيقـــة

أما من الوجهة الأخلاقية، فإن ((ميثرا)) يحمي الحقيقة، ويشترك مع ((راشنو))، الملك الرئيس في هذه الميزة. والنور مرادف الحقيقة، كما أن الظلمات تعني الكذب. وقول ما يخالف الحقيقة هو إثم من أبشع الآثام. وتختصر الأفستا كل شرور الإنسانية في 'دروج' (Druj) أي: الكذب. وهو المستقبح بين الآثام جميعا. فقد يسبب الكاذب الهلاك لبلد بأكمله. لذلك يدعى المؤمن إلى اجتناب الكذب أبدا، لأن ((ميثرا)) لا يغفر للكاذبين. وهو يبسط حمايته على رب الدار، وزعيم القبيلة، ورئيس المدينة والبلاد، ما داموا يجتنبون الكذب. فإذا ما اقترفوا هذا الإثم صب ((ميثرا)) الدمار الشامل على الدار، والقبيلة، والمدينة والبلاد، وأهلك أشرافها وسادتها. ولكن إذا خفي هذا الإثم على ((ميثرا)) خلال سنوات فإنه يعاقب أقارب الآثم وأتباعه. وإن قاعدة أخذ الأسرة والأتباع بجريرة أحدهم، هي استمرار لقانون

أخلاقي سابق على الزرادشتية، وهدفها الأساس توطيد الأخلاق الجماعية.

قدسية العقود

يطلب 'ميثرا' من المرء أن يفي بالكلام الذي قطعه على نفسه. 'فميثرا' هو الملك المكلف بالحق، ويسهر على قداسة العهود. لذلك تستخدم الأفستا اسم 'ميثرا' اسم علم بمعنى 'عقد'. وقد نهى 'أهورا مزدا' زرادشت عن الإخلال بعقد أمضاه مع إنسان ما، برا كان أو فاجرا، لأن 'ميثرا' يسعى لضمان الوفاء بالعهد.

سخط ميثرا ورضاه

يدعو المؤمن 'ميثرا' بخشوع، ويناديه باسمه، ويقدم إليه النذور. ويسأله أن يستجيب لصلواته، ويصغي إلى ضراعته، ويتقبل نذوره. فإذا آن الأوان ورضي 'ميثرا' عن المؤمن فإنه يفيض عليه من بهائه ومجده، ويهبه صحة البدن، والقطعان من الماشية، والعربات، والنسل، والسيادة. فإذا أسيئت عبادته وأثير غضبه، يحيق بهذا المسيء الفقر والبؤس، ويحرم من النسل والسيادة. وإن التضرع إليه باسمه يعني الحصول على سر السعادة، في هذه الدنيا وفي الآخرة.

الفصل الثامن

عقيدة النار

إن لـ 'أثار' (النار) مكانة رفيعة بين الأرواح الحارسة ذات الصلة بالعناصر الأربعة، لأنه 'بوثرو – أهوراهي – مزدا – ' أي: ابن اهورا مزدا . وإن المفردات الأساسيات المعبرة عن الفكرة الآرية عن الألوهية، مقتبسة من النور والنار. فنجد في السنسكريتية أن الاسم الأجناسي الدال على الرب هو 'ديفا' (Diva) المشرق، وهو مشتق من الجذر 'ديف' (Div) أي: إشراق، لمعان. وفي السنسكريتية القديمة كل ما يلمع يدعى كذلك 'أثار فان' (Atharvan) أي: فيه أثار (Athar)، أي: فيه نار. وبذلك يتبين أن عقيدة النار ليست عنصرا مقتصرا على المعتقد الإيراني، فقد مارستها أمم آرية أخرى، منذ زمان سحيق. كما أن إخوانهم الفيديين، قدماء الإيرانيين، قد تكلموا عن النار بلهيبها المرتفع عاليا، وكأنما هي رسول مبعوث من الأرض إلى العرش السامي 'لاهورا مزدا' وقد جعلوا من أثار رمز العبادة.

وهل نجد تمثيلا لمن هو النور الأبدي، أكثر بداهة، وأجل شأنا من اللهيب النقي الطاهر؟ ويذكر زرادشت 'أتار' بمعنى الشرارة الإلهية، شرارة من هذا اللهيب الإلهي الذي يشرق في قلب كل كائن إنساني، أكثر مما يذكره باعتباره أقدس العناصر المبجلة، ومصدرا للحرارة والنور، والحياة والنماء. ولئن اختار زرادشت 'أثار' رمزا خارجيا لإيمانه، فذلك لأنه أقدس العناصر، ولأنه يمثل في الوقت ذاته، الشرارة

الإلهية. إن زرادشت لم يعد تشييد وحدة الرب فحسب، بل أعاد كذلك ترتيب شكل الشعائر الدينية التي ميزت العالم الآري منذ أقدم العصور، ألا هي: عبادة النار، رمز الرب.

إن الرومان الذين ينتمون إلى الأرومة الآرية الأولى، منذ زمان أقدم من البرهميين، كان لهم سدنة مكلفون بإيقاد النار، أو كما يقال حرفيا: إصدار النار أو إنتاجها. ويحرم عليهم اقتباس النار من معابدهم ونقلها إلا لتأدية الطقوس المقدسة. وكان محرما عليهم لمس كل ما ليس بطاهر، سواء كان جثة أو رمسا، ويحرم عليهم كذلك الخروج دون ارتداء (Filum)، وهو نوع من البرانس ذات قلنسوة مدببة، شبيهة بالشعلة، ويربط بنهايته (Virage) أي: غصن زيتون و(Pileus) ، فإذا عمدوا إلى تقديم القربان أمسكوا بيدهم Virage) commetacule)، ولعل ما يقابله هو (Baresam) الزرادشتي. وأما نساؤهم، السادنات(Flaminica) فيصففن شعورهن بتسريحة مدببة مثلهم. ويرتدي السادن حجابا أصفر، أو بلون الشعلة. وينتمي السدنة إلى الألوهية بحيث ينبغي لهم أن يحرقوا تحت شجرة مثمرة ما يقصون من شعورهم، وقلامة أظفارهم، وهذا يذكرنا بالموعظة الموجهة إلى زرادشت في الفنديداد:

'يازرادشت! احلق شعرك، وقلم أظافرك، وائت بها إلى هذا الموضع'.

كما أن للرومان مذبحا اتحاديا يدعى (Alba Longa)، تقتبس منه النار المقدسة ثلاثون مدينة لاتينية. وعلى سفح (Palatin) في المدينة الخالدة، كان معبد فيستا (Vesta) المركز المبجل للدولة الرومانية كلها. وترمز النار الأبدية هناك إلى الحضور الإلهي والحماية السماوية لوجود الدولة. كذلك الحال لدى الإغريق، فإن النار الموقدة

على مذبح بان (Pan) في أوليمبيا (Olympie) لا ينبغي لها أن تخمد أبدا. وفي معبد 'أثير بولياس' (Athere polis) يحرصون على بقاء الشعلة موقدة أبد الدهر في قنديل مذهب. ولم يهدم 'خشياريه شا' (xerxes) معبد ديلوس(Delos) لأن عقيدة النار فيه تشبه عقيدة الزرادشتية.

وكان لقدماء الجرمان قنديل مشتعل على الدوام، يوضع أمام تمثال إلههم ثور (Thor) . وكذلك يفعل السلاف لتشريف إلههم بيرون (Perun)، والنمساويون لتكريم إلههم (Perkum)، فيحرصون على إشعال نار دائمة يغذيها الكهنة بخشب السنديان. وكان لأهل ليتوانيا في فيلنا (Vilna) نارهم المسماة زينوز (Zinoz)، التي لا تخمد أبدا، والويل للكهنة إذا خمدت في غفلة منهم، فإن مثل هذا الإثم له عقوبة واحدة هي الموت. أما الشعلة المقدسة لـ 'إله النور' السلافي فلا يمكن للكهنة الاقتراب منها إلا إذا حبسوا أنفاسهم.

ويذكرنا هذا العرف بالـ 'بادون' (Padon)، وهي حجرة صغيرة للملابس كان الكهنة فيها يغطون أفواههم حينما يؤدون عبادة النار، بحيث يجتنبون تدنيسها بأنفاسهم. وكانت في 'كيلدار' (Kildare) من أيرلندا نار دائمة شبيهة بنار 'فيستا' (Vesta) الرومانية، لتكريم الـ (Bridgit) الوثني، أي المشرق، ويحيط بها سياج. ويمنع على أي إنسان الاقتراب منه، ولا يسمح لأحد أن ينفخها بفمه، فكانوا يضطرون إلى استخدام المنفاخ لإشعالها.

أما الديانة اليهودية فكانت تعتبر الشعلات الملتهبة واضطرامها دليلا على جلال الرب وحضوره. قال الأبدي لموسى: 'على المذبح تبقى النار موقدة دوما، ويقوم الكاهن على خدمتها، فيحمل إليها الحطب صباح كل يوم. إنها النار الأبدية التي لا ينبغي لها أن تخمد على المذبح،

أبد الدهر'. وتحدث القديس يوحنا المعمدان عن المسيح حين خاطب اليهود فقال: 'أما أنا فإني أعمدكم بالماء من أجل التوبة، ولكن من يأتي بعدي وهو أعظم مني، ولست جديرا بحمل نعليه، فإنه سيعمدكم بروح القدس والنار'. وقد أكد المسيح ذلك، أليس هو القائل: 'لقد جئت حاملا النار إلى الأرض، وكم تمنيت لو كانت قد اشتعلت'. كذلك الحال حينما اجتمع الحواريون جميعا في حجرة من أورشليم بعد صعود سيدهم المسيح، وحدث فجأة أمر شبيه بما حدث حينما أعلنت الشريعة القديمة على جبل سيناء: 'وتعالت الضوضاء قادمة من السماء، شبيهة بالريح العاصفة، فملأت أنحاء البيت الذي جلسوا فيه. ثم تجلت عليهم ألسنة فرقت بعضهم عن بعض كما لو أنها من نار، واستقر كل لسان منها على واحد منهم، فامتلئوا جميعا بروح القدس'. إن الشعلة المقدسة في مذبح الكنيسة المسيحية تشير إلى الحضور المقدس للرب المخلص، تماما مثلما هو الحال في مذبح معبد النار الزرادشتي، حيث تعلن الشعلة المؤبدة عن حضور 'اهورا مزدا'.

في معابد النار هذه يرفع الزرادشتيون إلى 'أثار' تضرعاتهم، وكثيرة هي الأناشيد التي كتبت في مديحه. فأثار هو أجمل المخلوقات، وسيد الدار، واسمه عالي الشأن. إنه المحارب المتصف بقوى المجد والنجدة. فالزرادشتي التقي عابد النار يجلب بيده الوقود وأغصان البرسمان (Baresman) ويجلب الحليب أيضا، ويمسك جرنا لكي يثبت ويصالب أغصان الهاوما المقدسة، فيتلقى هذا العابد البركة والإحسان. ومن بين النعم التي ترتجى لدى هذا اليزاتا المنجد، العيش الرغيد، ودوام الازدهار، والحكمة الثاقبة التي لا تنقضي، كذلك الاحترام والمعرفة، والعافية، واللسان الفصيح، والأطفال النجباء،

والشهرة، والسمعة الطيبة في الحياة الدنيا، ورضوان الحياة الآخرة. وكل من لا يقدم فرض الطاعة الواجب للنار يغضب 'اهورا مزدا'.

في الأتاس (Atas) أو المعبد، يصلي الزرادشتي الورع أي: 'نياهش' (Nyahesh)، لكي تبقى النار سليمة من النقصان حتى يوم تجديد العالم:

'عساك تتوقدين في هذه الدار! عساك تتوقدين دوما في هذه الدار،

عساك تزهين في هذه الدار! عساك تتضاعفين في هذه الدار زمنا طويلا، حتى قدوم اليوم العظيم، القادر على تجديد العالم!'.

حينما يخرج 'ميثرا' بعربته المذهبة ليقوم بجولته اليومية، يتبعه 'أتار' والأرواح الأخرى. فيضرب هو و'فوهو مانو' روح الشر الذي اقترف الإثم، إثم إحراقه أو شيه أشياء ميتة. وقد نصت 'الفنديداد' على عقوبة الإعدام لمن يفعل ذلك. ولا كفارة ممكنة لمن يرمي جيفة في النار. وأيما نار دنستها الجيف مهما كانت، ينبغي أن تطهرها الشعائر. ومن يقبض رمادا من هذه النار المطهرة يقوم بأمر عظيم الثواب، جزاؤه في الدار الآخرة.

معابد النار

إن الاهتمام والحرص الشديدين اللذين يعمد القوم إليهما لئلا تدنس النار، وهذه الأوامر المفصلة، وذلك القانون المهيأ لتحقيق الطهارة، ندركها جميعا إذا علمنا أن النار باعتبارها الشعار الأسمى للألوهية، والرمز الأقدس للإيمان، قد وضعها أتباع زرادشت الأتقياء

في معابدهم، وجعلوها في خدمة عقيدتهم، عقيدة 'أهورا مزدا' في تلك المعابد المعروفة باسم 'أتاس – دهرامس' (Atas - Dehrams)، تبقى الشعلة المقدسة متوقدة أبدا، ليل نهار. ومن أفضل الأعمال نذر خشب الصندل لهذه النار. فلا عجب إذن، إن التهمت نار المعابد سنويا من الخشب، ما يساوي آلاف الروبيات (عملة محلية).

انحـراف مفهـوم العبـادة

في زمن لاحق، اختلط مفهوم العنصر ذاته بمفهوم الروح التي أقامت فيه. وأدى هذا الخلط بين الفكرتين إلى سوء فهم. فالنار تشغل مكانة هامة في نظام زرادشت الديني، ولكنها مكانة تابعة فقط. وقد رأى فيها نموذج النور الخالد، والبعث الروحي للنفس. ويتحدث عن النار في الجاتا باعتبارها المخلوق المشرق القادر من مخلوقات اهورا مزدا، ويرى فيها رمز الألوهية، ويفضلها على الأصنام وغيرها من الأشياء المخلوقة. ولا نجد في أي موضع ما يفرض عبادة النار. والحال، أنه قد شاعت زمنا طويلا، سواء في أوروبا أو أسيا، الفكرة القائلة بأن الديانة الزرادشتية كلها تتلخص في عبادة النار. وقد تهافتت هذه النظرية منذ زمان طويل. ولقد أنصفها ماكس مولر حين لاحظ أننا إذا اعتبرنا ديانة زرادشت ديانة النار، فينبغي لنا أن نقول الأمر نفسه عن ديانة الهند، وحتى عن ديانة اليهود. والواقع، أنه من الواجب النظر إلى موقف الجماعة الزرادشتية من هذا الرمز المقدس إلى جانب عبادة عناصر مقدسة غيرها. فنستطيع أن نعد الزرادشتيين عبادا للشمس لأنهم يتوجهون إليها بوقار، ويرفعون أيديهم نحوها في صلواتهم. أو قد نستطيع أن نلصق بهم عبادة الماء: لأنهم يقرؤون الأدعية أمام الينابيع والعيون، وعلى شواطئ المحيطات. فإذا كان إجلال العنصر المقدس

وتمجيده يفسران بأنهما عبادة له، فإن الصلاة الزرادشتية المؤداة أمام النار المقدسة طلبا لطول العمر، والقوة، والحكمة، والبهجة، والنسل الصالح، تعتبر بلا ريب عبادة للنار. ولكن مثل هذا الإجلال لا يقتضي حقا أن الشيء المعبود قد اعتبر بذاته ألوهية سامية. يضاف إلى ذلك أن هذه العبادة تتنافى مع نظام ديني قائم على التوحيد، بحيث لا تدع مجالا للوهم أو الخطأ، خاصة إذا علمنا أن مثل هذا التوقير يقدمه الزرادشتيون إلى عناصر مقدسة أخرى.

الفصل التاسع

روح الماء

إن تمجيد الماء، وهو مرحلة أخرى من عبادة الطبيعة قد انتقل إلى أتباع العقيدة الزرادشتية بوساطة أسلافهم الآريين. ومع ذلك ينبغي التذكير بأن الحضارة الآرية قد اعتنقت هذه العبادة، ولم تبتكرها من ذاتها. يتصور الإنسان، منذ أقدم العصور، أن الأشجار والنباتات وأوراقها، وجذورها، والحجارة، والأودية، والتلال والبحار، والينابيع يملك كل منها روحا خاصا به، سواء كان مرئيا أو خفيا. وقد مر الإنسان، خلال التطور الحضاري، بمرحلة الاعتقاد بالأرواح الكثيرة التي يعد حضورها الكلي مقدمة إلى الإيمان بالحضور الإلهي المطلق، وإن مثل هذا المفهوم عن عالم الأرواح المألوف لدى إنسان ما قبل التاريخ، هو الذي سيطر على عبادة الطبيعة كما ظهرت لدى الآريين القدماء. فلم يكن الماء في نظرهم ضرورة لا غنى عنها لحفظ الحياة فحسب، بل كان مصدر كل ضروب الحياة. وهو جدير بالعبادة باعتباره إلها. وتدعى المياه في الفيدا (apo - devi)، وتدعى في الأفستا (Apovanguhish).

أما جاتا زرادشت فلا تعترف بوجود أي ألوهية للماء، لأن عقيدته الموحدة لا تعترف إلا بوجود خالق واحد للكون أجمع، بشتى عناصره، يقول زرادشت:

"ياأهورا مزدا! هل من إله سواك خلق المياه والأشجار؟".

ومع ذلك فإننا نجد في الأفستا المتأخرة شاهدا على تطور عقيدة منتظمة يعبد فيها العنصر المائي، مع ألوهية (Aredvi Sura Anahita) ، الروح المهيمنة فيها.

وطبقا للمفهوم السائد في تلك الفترة، فإن مستقر المياه كان في السماء، ويوصف بأسلوب شعري نزلها من ذلك المقام، على صورة هبوط عذارى فاتنات، هن بنات أهورا السيد. وكان شعب الأفستا يقدس هؤلاء الإلهات المحسنات باسم أهوراني (Ahurani) ، وتدعوهن الفيدا "أسوراني" (Asurani) ، مثلما كان البابليون يدعون إله المياه باسم "ميليتا" (Mylitta) ، وهو مشتق من كلمة "mul" وفي العربية "مولى" أي السيد.

آريدفي سورا أناهيتا

في الأبان ياشت (Aban yasht) يتوجه الدعاء إلى مجرى الماء ملتبسا بالإلهة القوية آريدفي سورا أناهيتا" (Aredvi Sura Anahita) ، القادرة، السامية، الطاهرة، وهو اسم نهر خرافي. وتسكن الإلهة في إقليم الكواكب، وقد أوكل إليها اهورا مزدا مهمة رعاية صحة الخليقة، مثلما يحرس الراعي قطيعه.

وفرض "أهورا مزدا" على زرادشت عبادة "أناهيتا" التي تسيل، رقراقة تحت الجسور، ناشرة السلامة، قاهرة أرواح الشر، داعية إلى دين "أهورا"، فهي تستأهل العبادة والأماديح في عالمنا الحي:

" هي التي تمتد ، واسعة ، هي التي تشفي

عدوة روح الشر ، المخلصة لعقيدة مزدا

جديرة بالعبادة في العالم المادي

جديرة بالضراعة في العالم المادي

وهي التي تطور الحياة ، هي العادلة

التي تمنح النماء للقطيع ، العادلة

التي تزيد في الأطعمة ، العادلة

التي تربي الثروة ، العادلة

التي توسع الأراضي ، العادلة .

....

أنا هو ' أهورا مزدا ' قد ولدتها وأنا أحرك لساني لتكون

في خدمة الدار ، وخدمة القرية ، والمدينة ، والبلاد ' .

وتملك آريدي في سورا أناهيتا' مركبتها الخاصة تجرها أربع أفراس ضخمة، ناصعة البياض من أصل واحد. فهي تدحر كل المستبدين والأشرار، والسحرة، والساحرات، والظالمين. كذلك تفعل بالمتعامين والمتصاممين. وهذا بالطبع تعبير مجازي، فما الأفراس الأربع سوى الريح، والمطر، والسحاب، والندى التي خلقها 'أهورا مزدا' ودفعها إلى 'أناهيتا'.

وترسم النصوص لروح الأمواج صورة حافلة بالحياة، فهي عذراء جميلة الوجه، رشيقة الحركة، تامة الحسن، طاهرة، تتوجها هالة. وعلى جبينها تاج ذهبي، ترصعه مئة نجمة، رائعة الزينة، يتدلى من أذنيها قرط ذهبي، ويحيط بجيدها عقد من الذهب أيضا وتلمع الأساور في معصميها. ويزيد جمالها زنار يحيط بخصرها الرهيف،

وينافس خفها ببريقه لمعان الذهب على ثيابها، وقد لاحظ بعض العلماء أن هذا الوصف المدون لروح الأمواج يتطابق تماما، مع تماثيل الحجارة والمعدن التي تصور 'أناهيتا'، وعلى كل حال، لا ينبغي أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن عبادة التصاوير كانت شائعة في إيران. لأن عبادة الأصنام كانت مكروهة لدى الزرادشتية المحافظة، حتى إن الملوك والأبطال الإيرانيين قد شنوا حملة شعواء على عبادة الأصنام.

ويشهد 'هيرودوت' على أن شعب إيران يجهل الأصنام، ومع ذلك، فإن تماثيل الآلهة على اختلافها لم تكن غائبة في هذه البلاد في عهد الأخمينيين. فقد أقيمت التماثيل لتمجيد آريدفي سورا أناهيتا'، في كل من بابل، وإكباتان، وسوس، وبيرسوبوليس، وبكتريا، ودمشق، وسارد. فهل عبد الزرادشتيون في ذلك العهد تلك التماثيل بالاشتراك مع الشعوب المعاصرة لهم؟ لا يمكن القطع برأي حول هذا، سواء كان قريبا من الحقيقة أو بعيدا منها.

وتعرض 'الأبان ياشت' أسماء الملوك الذين قدموا القرابين إلى آريدفي سورا أناهيتا' وهم يضرعون إليها أن تتفضل عليهم بمختلف الهبات. وتقول النصوص إن اهورا مزدا نفسه قد عبدها طالبا منها العون كي تقنع زرادشت بقبول النبوة. أما زرادشت فكان يدعو هذه الإلهة متوسلا 'بالهاوما' و'البارسمان'، ومستخدما الرقى ومريقا الخمور. وقدم إليها متعبدون آخرون مئة مهر نجيب، وألف ثور، وعشرة آلاف نعجة. إن 'هاوشاينها' و 'ترايتاونا' و 'يما' و 'كيرساسبا' (Haoshaynha ,Yima , Thraetaona , Keresaspa) وجموعا غيرهم من الملوك، والأبطال، والحكماء، والمشهورين قد عبدوها بالخصوص، وطلبوا منها كل أنواع الهبات، أما الحكام فيطلبون منها النصر على هذا البلد أو ذاك، وأما المحاربون فيسألونها الخيول والنصر في ساحة الوغى، وأما الكهنة ومريدوهم فيطلبون منها المعرفة

والحكمة لحل الألغاز التي يطرحها عليهم الهراطقة. ويريق لها الكهنة الخمور سائلينها التجلي على المذبح من علياء مستقرها، التفضل على الجنس البشري بالثروات، والخيول، والعربات، والسيوف، والطعام الوفير. ومهما يكن الأمر، فليس للأشرار أي أمل في الحصول على أفضالها. وقد رجاها أزي داهاكا (Azi Dahaka) الضحاك (التجسيد لروح الشر) أن تمنحه القوة لإبادة الجنس البشري من سطح الأرض وإخلاء الأقاليم السبعة منهم، ولكنها رفضت رجاءه، كما رفضت التوسلات التي قدمها أعداء آخرون لشعب إيران.

عقوبة تلويث المياه

أيما امرئ أفسد الماء فإنه يرتكب خطيئة. وكل من يفعل ذلك تغضب عليه الروح المتحكمة في العنصر المائي. وأما أولئك الذين يعمدون إلى رمي الجثث في الماء، فيصبحون دنسين إلى الأبد. وأيما امرئ سواء كان ماشيا، أو مهر ولا، راكبا حصانا أو عربة، رأى جثة طافية في مسيل الماء، فواجبه أن يخوض فيه إلى ساقيه أو ركبتيه أو وسطه، أو يغوص فيه بكامل جسمه، إذا اقتضى الحال لكي ينتشل من الماء هذه الجثة المتفسخة، وأن يوسدها التراب ليجعلها عرضة لضياء الشمس[1].

عملية العبادة المثالية

إن الإجلال الذي يقدم في الأصل إلى المياه المتدفقة وماء الينبوع، قد شمل به الزرادشتية المحدثون مياه الآبار، ومياه البحار. ففي مدينة

---

[1] R.P. Masani , " Folklor of wells " .

بومباي حيث تعيش هذه الجالية القليلة، يمكنك أن ترى على مر الأيام أتقياء البارثيين منتشرين على الشاطئ وهم يغمسون أصابعهم في الماء ويمسحون بها أعينهم وجباههم، ثم يرفعون أكفهم بالدعاء إلى أهورا مزدا. وقد ترك لنا أندريه كارنجي وصفا ممتعا لهذا المشهد حين رآه في بومباي خلال رحلته حول العالم، فقال: 'هذا الماء، وحينما كنا نتمشى على رمال الشاطئ فوجئنا برؤية الكثير من البارثيين، ومعظمهم من السيدات في أبهى حلة، يتوجهون جميعا نحو البحر ... هناك على شاطئ المحيط والشمس تهبط في لجة الماء، والهلال الفضي يلمع بكل بهائه، يجتمع هؤلاء الناس لتأدية طقوسهم. وقرص الشمس الغاربة يلتهب في الأفق، وتمتد أمامهم مياه المحيط الهندي الشاسعة، وتحت أقدامهم الأرض. على حين تهب فوق رؤوسهم نسمات من الهواء عابقة بعبير 'بلاد العرب السعيدة'. حقا، إنه لا يمكن اختيار لحظة أفضل، أو بقعة أصلح لكي تسمو الروح نحو ملكوت ما وراء البحار. ويستحيل علي ألا أشارك في عمل بمثل هذه الروعة والجلال يؤديه هؤلاء المتعبدون. ولا تسمع سوى الموسيقا البديعة لهمسات الأمواج المتكسرة، المزبدة على الشاطئ. ولكن، أين تجد موسيقا أرغن أقوى أو تسبيح أكثر رهبة منها؟ لقد اكتسى المشهد في نظري سموا لا يوصف. وبالمقابل: كم كانت كاتدرائياتنا 'التي صنعتها يد الإنسان' تبدو متصاغرة، وغير جديرة بذلك 'المجهول' الجليل، حينما أقارنها بهذا اللقاء بين الطبيعة وبين خالق الطبيعة. لبثت ساكنا، تغمرني بهجة عارمة تحلق في الأجواء. وقد شهدت الكثير من صيغ العبارات وأشكالها، وتقززت من بعضها، وأحزنني بعضها الآخر، وحلقت بروحي أحيانا نغمات الأرغن، ولم يكن كل ذلك بجانب ما رأيت اللحظة، سوى شيء بالغ الفاقة. لم أكن أتوقع أن أرى في حياتي شعائر دينية تترك في نفسي أثرا عظيما مثلما تركت شعائر البارثيين على شاطئ بومباي'.

لم يكن كارنجي سوى أحد أولئك العابرين القادمين من الغرب، الذين أسرتهم هذه العبادة المتميزة. وقد وجد صموئيل لينغ (Samuel Laing) نفسه مدفوعة إلى تقديم الولاء للروح الإلهية، وتأمل أغوار العالم المجهول بنظرة إجلال ودهشة. وإليكم ملاحظاته:

'إنها مثالية، تلك الشعيرة الدينية، فهي تجمع بين الأكثر صدقا، والأكثر أثرا، والأكثر سموا في موقف الكائن البشري من 'المجهول' العظيم. فإذا ما قارنتها بإحدى صلوات الأحد الإنكليزية، تبين لك فقر هذه الصلوات وإسفافها. وليسمح لي القارىء الآن، قبل توديعه أن أرخي العنان لخيالي، فقد تصورت نفسي بين جموع هؤلاء البارثيين المتوافدين إلى ضفاف المحيط الهندي. أسمع إيقاع همهماتهم، وأتنشق النسيم العابق بالشذى، وأرقب الهلال الفضي في ربعه الأول، وأرتل المقاطع الحكمية لقدماء المفكرين. إن ملخص التأملات التي حاولت تكثيفها في الصفحات السابقة، قد بلورتها المقطوعة الشعرية التالية:

' سلاما ، يا أورمزد الفاضل ، يا خالق كل الخيرات

يا روح الجمال ،والطهر ، والنور !

' علمني أن أكره مثلك فعال الليل السوداء

' وأن أكافح الوغد الجهنمي

' أهريمن ، البشع ، ذا الطبيعة الدنيئة

' أبا الأكاذيب ، والدناسات ، والحسد الدفين

' والسرقات ، وجرائم القتل، والآثام الجسدية التي تنفر من الضياء،

' والآثام الطائشة ، الدنسة التي لا تعرف الحياء

' هبني ، ياأورمزد المنير ، مكانة بين أتباعك

' جنديا ، شهما ، مخلصا ، مدى الحياة

' وحينما أغادر الشاطىء الأليف لهذه الحياة

' وأتصل بالمجهول العظيم ، أضع روحي بين يديك

' غير خائف من المصير ، إن شملتني برحمتك ' [1]

إن المعجبين بالتعبد على الطريقة الزرادشتية، لو لقنوا ما يدعى عقيدة العناصر تلقينا باطنيا، لتذوقوا بطريقة أجود عبادة البارثيين للنار والماء. ليس عنصرا الماء والنار اللذان جعلهما البارثي 'قبلته' (Kebleh) ، أو مذبحا للعبادة الإلهية، سوى رمزي النار والماء الروحانيين اللذين يعتبرهما باصرتي الروح. وإنه لا يعبد عنصري النار والماء، بل الروح الكامنة في هذين العنصرين الماديين، الروحانيين اللذين يدعوهما: 'أتارش بوترا أهورا مزدا' (Atarsh Puthra Ahurahe Mazdao) أي: النار بنت أهورا مزدا . و 'أردفي سورا أناهيتا' (Aredvi Sura Anahita) أي: روح المياه، العدل، المشرق، المطهر. إنها النار التي لا يخبو بريقها أمام أهورا مزدا في الـ 'الجارونمانا' (Garonmana) ، وأما روح المياه، فهو بالطريقة نفسها، المنبع الروحاني لكل المياه التي تجري على سطح الأرض.

---

[1] الزرادشتي المحدث .

الفصل العاشر

مشكلة الخير والشر

من بين كل المشكلات التي تطرحها الحياة، تعتبر مشكلة وجود الشر أكثرها بلبلة للأذهان. إن للخليقة جانبا منيرا، وجانبا قاتما. كما أن للإنسان مظهره الشريف، ومظهره الدنيء. وتحيط بالطبيعة ثنوية لا يمكن تجاوزها، فلا شيء في الكون عدل كامل، ولا شيء فيه شر خالص. وإن الكثير من الأمور الخيرة بذاتها تتضمن عددا كبيرا من الشرور، لا يمكن إغفالها، أو إبعادها بتفسير سفسطائي مغالط، باعتبارها (Maya) أو وهما. كما أننا لا نستطيع قبولها على أنها قدر، خطته يد العناية الإلهية.

الشر شيء إيجابي

يطرح زرادشت قضية وجود الشر وجودا مستقلا بذاته. فهو شر فحسب، بلا زيادة أو نقصان. فليس هو الخير وقد أصابه الدنس أو الفساد. وليس هو الخير في سبيله إلى التشكل، أو الوصول إلى النضج. إنه النقص، النقص في كل شيء، والنقيض المحض للخير. إن الشر عنصر متميز، وهو العدو النشط للخير. إن هذين العنصرين، الخير والشر، لا يتوقفان عن الاعتمال في الإنسان، كما يعتملان في الخليقة كلها. ويتطابق تاريخ صراعهما مع تاريخ العالم. ويشترك الإنسان، في هذه المعركة الطاحنة، ويلعب دور المحارب إلى جانب سبنتا

مينيو' (Spenta Mainyu)، روح الخير. أما زرادشت فإنه ينمي في مريديه غريزة الكفاح، والرغبة العارمة في محاربة روح الشر. فتغدو الحياة بذلك حربا شعواء لا تنتهي ضد قوى الشر، وضد النقصان (عدم الكمال). فليس واجب الإنسان وحده بل واجب الخليقة كلها، أن ترتفع من الحضيض، وتسمو من النقصان إلى ذروة الكمال. وينبغي، خلال هذه العملية إصلاح المفاسد الاجتماعية وإقامة العدالة الاجتماعية، فالمجتمع باعتباره كلا، ينبغي أن يتآزر، وينبغي للعالم أن يفتدى.

العنصران الأوليان

بعد أن توصل زرادشت إلى فكرة وحدة الرب الأساسية، وجد نفسه في مواجهة الصراع الأبدي الناشب في هذا العالم بين الخير والشر، منذ فجر الخليقة. فكيف يمكن للنقائص أن توجد في العالم، وكيف يمكن لشتى أنواع المفاسد، كالظلم، والاستغلال، والشر، والدناءة، أن تتماشى مع صفات القداسة، والصلاح، والعدل المنسوبة إلى 'أهورا مزدا'؟ فالحياة عطية الرب، ومن القصور الواضح أن تحيط بها الشرور من كل جانب، وأن تكون حافلة بالألم والمعاناة. وقد ابتكر زرادشت حلا لهذا اللغز، بجعله هذين العنصرين الأوليين يصارع أحدهما الآخر. واسم أحدهما 'سبينتا مينيو' روح الخير، والآخر 'انجرا مينيو'، روح الشر. ولا شيء يدل في الجاتا على أن هذين العنصرين قد فاضا عن 'أهورا مزدا' أو خلقهما بنفسه. والحق، أن بعض المؤلفين توصلوا إلى هذا الاستنتاج، ولكن أفضل من عرض هذه المسألة هو الأستاذ جاكسون. إن الروحين لا انفصال لأحدهما عن الآخر، بل هما متصلان معا. وهما يتلاقيان في الوحدة العليا لأهورا مزدا. وهما سابقان على

وجود العالم، ولكن تناقضهما يجد التعبير عنه فقط في العالم الذي نبصره بأعيننا. وإن روح الخير ليس مطلق الحرية في التصرف على هواه، فهو منذ أن جاء إلى الوجود يلاقي معارضة دائمة من روح الشر.

هذان الروحان التوأمان يشكلان، على مختلف الأصعدة، النقيض التام لأحدهما مع الآخر. وإليكم هذه العبارات الحماسية التي تعرض بها الجاتا اختلافهما، وتناقضهما الجذريين:

سأتكلم الآن عن الزوج من الأرواح منذ أول بداية للحياة، إن أكثر الاثنين صلاحا تكلم هكذا مع الآخر، الشرير: 'لن تتواءم مقلتانا أبدا، ولا أنظمتنا، ولا مرامينا، ولا عقائدنا، ولا أقوالنا، ولا أفعالنا، ولا أفئدتنا، ولا حتى أرواحنا'[1] وبذلك، ولأول مرة في التاريخ الديني، نرى العقيدة الفلسفية للاستقطاب الأبدي، قد طرحت بوساطة زرادشت. إن هذه العقيدة البعيدة عن توليد الاعتقاد بثنوية كونية، قد استخدمت لتوطيد الإيمان بثبات عقيدة التوحيد التي أضفت على المعتقد الزرادشتي طابعه الأساس. إن عالمنا الواقع تحت القمر، يؤلف، كما يقال، ساحة معركة تتصارع فيها قوى الخير والشر. وكلا العنصرين دائب على الاعتمال في الإنسان، وفي الخليقة أيضا، وإن واجب الإنسان، ومهمته السامية في الأرض، الانضواء تحت راية ملك الاستقامة وأن يدحر قوى الفساد.

إن 'سبينتا مينيو'، بحسب زرادشت، هو ابن اهورا مزدا، وأول الكائنات المخلوقة، ويشغل المرتبة الأولى في التراتبية السماوية، وبشفاعته يصبو النبي إلى الاقتراب من 'أهورا مزدا'، وبوساطته يتلقى الفكر الإنساني الاشراقة الإلهية. وعنه تصدر الأفكار الصائبة. وإن

---

[1] ياسنا، 45، 2.

الأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة لنتيجة الأفكار الصائبة. أما في القطب الآخر فيوجد 'انجرا مينيو' روح الشر الذي يشيع في العالم الفتنة والهلاك. وإن نسله من الدايفا (Daevas) قد ارتضوا به سيدا عليهم، وهو يدربهم على تضليل الإنسان بالأفكار الفاسدة، والأقوال الفاسدة، والأفعال الفاسدة، وأن يزينوا له بالشبهات طريق الضلال. وحينما تقع أفكار المرء ضحية 'انجرا مينيو'، تنحط إلى درك العبودية، وتنقاد لروح الشر. هنالك ينبغي اجتناب هذا الرجل اجتنابك للمطعون، وأفضل وسيلة لتفلت من روح الشر هو التفكير في روح الخير واعتناق قضيته. وإنما يقع المرء فريسة سائغة 'لانجرا مينيو' حينما يخلو ذهنه من الأفكار الصائبة 'لفوهو مانو'.

'من تخوم الشمال هجم 'انجرا مينيو' الفاني، أعتى الأشرار، مندفعا ليضل النبي عن الطريق المستقيم. ولكنه وجد القديس الأوحد ينشد العبارة المقدسة 'أهونافار' (Ahunavar)، وسعى 'انجرا مينيو' إلى إقناع النبي بالتخلي عن قانون الرب، وراءى لباصرتيه الإغراء بسيادة الأمم. ولكن القديس الأوحد ثناه عن النبي وطرده بـ كلا' الاحتقار. وتوج انتصاره على روح الشر بتلاوته الصلاة المبدوءة بهذه الكلمات:

'هذا ما أسألك' علمني الحقيقة، يامولاي'[1]. ومعتقد كل زرادشتي أن أمضى سلاح يملكه لمحاربة روح الشر هو عبارة أهونافار[2]، أي (أبانا) الزرادشتية[1].

---

[1] فنديداد، 19، 1- 1. .

[2] هذا هو أقدم النصوص، بل، أعصاها على الترجمة. وله من الترجمات بعدد التراجمة.

والترجمة التالية تتضمن الأساسي منه:

' مثلما يوجد السيد الأعلى، ومثلما يوجد زعيم روحي بسبب استقامته فإن هبات روح الخير موجهة الى من يعملون في سبيل السيد الرب، وإن قوة اهورا مزدا توهب لمن يحمي الفقير.

مهمــة الإنســان فـي الأرض

كيف سيوجه الإنسان حياته في مقابل هاتين القوتين المتصارعتين؟

إن ما يريد "أهورا مزدا" أن يفعله ممثلوه وخلفاؤه في الأرض أن يطهروا، ويجددوا، ويعيدوا إلى الطهارة الأولى ما دنسه روح الشر في العالم المخلوق. حين يتوجه المؤمنون إلى الإفادة من تجربة المواجهة بين الخير والشر، فيقاومون الأول ويختارون الثاني شعارا لهم، فإنهم يكونون قادرين على تحسين موقعهم، والارتقاء بشرفهم في هذا العالم وما بعده.

لقد وهب الإنسان العقل وحرية الاختيار. فإذا سمح للشر بالدخول إلى ذاته مختارا، فذلك لأنه استسلم إلى العنصر المخادع، القائم في روحه. وحينما يبتعد عن قانون الأخلاق، فإنه يبتعد بذلك عن مجال ذاته الحقيقي، عن ذاته العليا. فينبغي له إما أن يقاوم الشر، ويدحره، ويسيطر عليه، أو يخضع له، ويعترف بهزيمته أمامه. إنه غير كامل ذلك العالم الذي يعيش فيه الإنسان. وحين يكدح لكي يجعله كاملا فإنه يتعاون مع الرب. وأيما امرىء كافح الجهل، والتعصب، والزيف، والفساد والظلم، والحرب، والمرض، والموت فإنه يكون حليف الرب لتدمير قوى النقصان. هذا المفهوم النضالي عن الوجود الإنساني، يضفي على الزرادشتية سمتها السائدة.

ويكمن الخلاص في التعاون مع الخير ومعارضة الشر. وفي هذا المنحى، تتفق تعاليم النبي في معظمها، مع أخلاق عصره. لم تكن سلطة الحب لطرد الشر قد أرسلت نورها على العالم بعد. فكان من الواجب استخدام القوة، وأن مساعدة الشرير تعني أن يباشر المرء الشر بنفسه.

---

[1] يشير المؤلف إلى الصلاة المسيحية التي تبدأ بعبارة " أبانا الذي في السماوات.. " (المترجم)

إن العقيدة الأخلاقية التي تعترف بوجود عنصرين، عنصر الخير و عنصر الشر، قد ولدت بعد زمان، الاعتقاد بالثنوية الكونية. فتماهى 'سبنتا مينيو' مع 'اهورا مزدا' نفسه. وأدى هذا المزج إلى العقيدة التي تنسب خلق العالم وحكمه إلى ألوهيتين اثنتين: 'اهورا مزدا' و 'انجرا مينيو'، مستقلة إحداها عن الأخرى. الأولى خيرة والثانية شريرة، الأولى خالقة والثانية هدامة، الأولى مشرقة والثانية مظلمة. تميل الأولى إلى الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، والنوايا الخيرة، والفكر الصائب، والحياة الصالحة، وإلى الدين الحق. أما الأخرى، فلا تريد سوى الدمار، والأفكار الفاسدة، والأقوال الفاسدة، والأفعال الفاسدة، والنوايا الكافرة، والفكر الفاسد، والاعتقاد الفاسد، والدين الفاسد. من جهة أخرى نجد الجاتا وبعض العناصر من الأفستا الأخيرة، تحاول أن تقيم بشكل إيجابي الطابع التوحيدي للاعتقاد، كما بشر به زرادشت. و في كل تأكيداته يجعل هذين الروحين خاضعين لـ 'مزدا' الذي يتكلم عنهما بقوله: 'الروحان التابعان لي'. وفي الجاتا يكون 'اهورا مزدا' أب 'فوهو مانو'، ومن ثم لا يتماهى معه. والفصل 19 من الياسنا ينطق 'اهورا مزدا' بهذه العبارات:

'إن صانع الخير، أحد الروحين التابعين لي، يقول لكل عشيرتي:كل شيء طاهر ..'. هنا يجعل 'اهورا مزدا' مسافة بينه وبين 'سبينتا مينيو' ولا يمتزج به. وفي الكتاب المقدس نفسه يذكر بوضوح أن 'اهورا مزدا' وهو يريد الخير قد خلق السعادة والشقاء معاً'. (ياشنا،45، 9) .[1]

---

[1] دهالا، 'اللاهوت الزرادشتي يقول كذلك: في الواقع إن ذرادست يجعل ماذدا الخالق الأوحد والإله الأسمى فذرادشت موحد في كل مناحيه وكل مراميه'..The philosophy of Good Life.

إن روح الشر الذي ينازع روح القدس على ملكوت الأرض، ويـزرع الفتنة فيها، ليس خصم 'اهورا مزدا'، بل هو خصم 'سـبينتا مينيو'. وإن بين هذين الروحين صراعا أبديا، كما يبدو. و لكنـه، في الحق، محكوم عليه أن ينتهي بانتصار روح الخير على روح الشر. وإن الكتـب المقدسـة لهذه الديانـة، أكـثر الديانـات القائمـة في هـذا العـالم تفـاؤلا، تصـرح بعبارات قاطعة عن النصر النهائي لـروح الخير، واندثـار روح الشـر في بـاطن الأرض. فـالنصر النهائي للصـلاح على الفسـاد هـو خاتمـة لكـل صراع في هذه الدنيا. وإن الروحين التوأمين ليتلاقيان في الوحدة العليا لاهورا مزدا' بحسب عبارات الأستاذ جاكسون.

الفصل الحادي عشر

الحياة الآخرة

ينسب النظام الديني الزرادشتي إلى الطبيعة الإنسانية صفة ثلاثية: مادية، وحيوية، وروحية، أي: جسد، وحياة، وروح. وبما أن العناصر الروحية سابقة في الوجود فهي خالدة. وهي تشترك مع العناصر المادية (الفيزيقية) حين ولادتها، وتفارقها حين تحضرها الوفاة. والأساسية في هذه العناصر الروحية هي: الروح (Urvan)، والفكر (Fravashi)، مع قواهما المختلفة، مثل: الذهن (Manas)، و الشعور (Bodha)، وإن الجسد الحي (Tanu) بالنسبة إلى الروح والفكر كنسبة العدة أو الأداة إلى الصانع الذي يستخدمها، وكمثل الفرس بالنسبة إلى الفارس. ونميز في هذا التصنيف العناصر التي ميز التصنيف الحديث بينها، فهو يقسم الشخصية الإنسانية إلى العقل، والإحساس، والإرادة.

إن من واجبات المتدينين الزرادشتية البقاء في صحة جيدة. ويسأل المؤمن الورع الرب في صلواته اليومية 'الصحة أضعافا مضاعفة، صحة مضاعفة عشرة آلاف مرة'.

ويعتبر الصيام منتجا لأثر يتناقض مع الحفاظ على الصحة، وإتمام الأفعال الصالحة، العظيمة، ولذلك لا ينصح به. تقول الفنديداد:

'لا ينبغي أن تغيب عن خاطرك هذه الحكمة: لا أحد ممن يمتنعون عن الطعام بقادر على استكمال صحته، أو ممارسة الفلاحة بنشاط. ولن يكون قادرا على إنسال أطفال أقوياء. إن العالم المادي كله يعيش بالغذاء، فإذا صام هلك'.

إن وسيلة الوصول إلى الخلاص تتضمن طهارة الجسد وطهارة الروح. ومن هنا جاء المثل الزرادشتي: 'إن الطهارة أفضل شيء منذ لحظة قدومنا إلى هذا العالم' (Yaozdao Mashyai aipi Zanthem Vahista) وينبغي اجتناب أي ملامسة للأشياء الدنسة، مهما كان شكلها. وإذا تدنس الجسد فيجب القيام بتطهيره بمختلف الشعائر الخاصة التي أوجبتها الكتابات المقدسة، ولهذا التطهير قوة القانون، سواء من الناحية الصحية، أو من حيث المتطلبات الأخلاقية. ولا ينبغي للمرء أن يحفظ جسمه فقط بعيدا عن الدنس، بل ينبغي له كذلك بالنسبة إلى العناصر الأربعة: النار، والهواء، والماء، والتراب. كما يجب على الزرادشتي المؤمن الحفاظ على نظافة ما يحيط به. وأما بالنسبة إلى الحفاظ على سلامة الفكر، فإن الديانة الزرادشتية تؤكد على الثلاثية: الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأعمال الصالحة، إن هذه العقيدة الأساسية توصل من يتبعها من المؤمنين إلى النبع الأم للسلوك. ولا يقل الفكر أهمية عن القول أو العمل، فالثلاثية المذكورة لا تساوي بين هذه العناصر الثلاثة فحسب، بل تجعل الأفضلية للفكر على اعتباره المستقر الأولي الذي تفيض عنه كل الأقوال والأفعال الملائمة للأخلاق.

حريـة الاختيـار

إن عقيدة الشخصية الإنسانية تحتوي ضمنيا، عقيدة حرية

الاختيار. لأن واجب الإنسان أن يجهد نفسه للوصول إلى خلاصه. فالسيد الرب الكلي العلم، قد رسم خطة لما هو أفضل، ووهب الإنسان حرية التصرف. وخلال ممارسة هذه الحرية يقع اختياره على مبادىء النور أو مبادىء الظلام، ويختار الحقيقة أو الكذب، الخير أو الشر. وحين يرقى فكر المرء مع تقدم معرفته بالقانون، يحصل في الوقت نفسه على المروءة الحقيقية، فيتملك ذاته، ويتحكم فيها. وحينما يلائم بين إرادته وبين القانون، يكون قادرا على صد هجمات الزيف والشر، وذلك بمراعاته لصفات سبينتا أرمايتي، (Spenta Armaiti) كالتفاني في فعل الخير، والحب، والخدمة الاجتماعية. ويرقى إلى حالة الفكر الأسمى، القريبة من الكمال، وعمل الخير.

الثـــواب والعقـــاب

إن التوجه العملي للديانة الزرادشتية يشمل الحياة الآخرة. لأن عقيدة الثواب والعقاب في هذه الحياة، تتجاوزها إلى العالم الآخر. فالإنسان الذي يختار الحق يجزيه 'أهورا مزدا' في الدنيا الإنعامات الروحية والدنيوية، والنبي الذي يعلي من شأن الفلاحة كأفضل سلاح لمحاربة شرور الجوع والعطش، والمرض، والأسى، والنهب والاغتصاب، يسأل (أهورا مزدا) أن يمنحه جزاء عمله: 'عشر أفراس أصيلة ومهرا وجملا' على حين قد بشر بالخلاص والخلود في الحياة الآخرة. كذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان الذي يرجو سعادة الحياة الآخرة، فقد وعده في هذه الدنيا، بزوج من الأبقار مع ثورهما.

مهما كان المشهد الذي يراه زرادشت فيما حوله، مؤسيا وحافلا بالمصائب والآلام، فإنه لا يكل عن التبشير بإيمان بعدالة الرب. فالرب الكلي المعرفة لا يمكن أن يهزم فيترك الفساد يتغلب على الصلاح.

ولهذا فإن النبي لم يفقد الأمل، لحظة واحدة، في عالم أفضل. إن العالم الكامل هو في سبيله إلى التشييد، ولسوف يعتدل الميزان، ويؤدي الصلاح إلى السعادة، وينال الظالم عقابه ويستقيم ويتطهر. فزرادشت إذن، أول أنبياء الديانات الكبرى الذي بشر بعقيدة الحياة الخالدة.

سلاح الروح

إن الروح مسؤولة عن الأعمال الحادثة في الجسد. وتقول تعاليم النبي: إن الرب قد زود الإنسان بكل الوسائل التي تتيح له إنجاز مهمته بنجاح. فقد وهب الإنسان، على سبيل المثال: الطاقة (Kharatu)، والمعرفة (Chisti) وملكة الملاحظة، والحكمة، والذكاء (Hosh)، والإدراك، والحس، والعقل (Manas)، والفكر، واللغة (Vachas)، والفعل (Shyaothno)، وحرية الاختيار (Kama)، والشعور العملي (Ahu)، وكذلك 'الفرافاشي'، نموذج الطبيعة والإنسان والروح المرشدة، ووهب كذلك العاطفة الحميمة (Baodhas)، والذاكرة. وأسمى هذه الهبات أنه وهب الرؤيا (Daena)، والدين المنزل.

المتوقع من الروح الإنسانية، وهي مجهزة بمثل هذه العدة، أن تخرج منتصرة من معركتها مع قوى الشر. وينال الإنسان بعد موته جزاءه، إما ثوابا أو عقابا بحسب أفعاله. ولا شافع له، فلا يتوقعن العون من أحد. فلا صلواته، ولا قرابينه مهما كانت وافرة، بقادرة على أن تشرع له أبواب الفردوس. ولا الاعتقاد أو الإيمان بأي ديانة ما، تجعله ينجو من الجزاء. وباختصار، لا نجد في رسالة زرادشت أدنى أثر لشفاعة تضمن له الخلاص. فلا منقذ للإنسان سوى نفسه، فهو الصانع لجنته وجحيمه.

.والدعاء الموجز 'فيسباهوماتا، فيسباهوختا، فيسباهفارشتا' الذي يردده الزردشتي والدعاء الموجز التقي كل صباح، يذكره بأن 'الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة التي يقوم بها الإنسان تؤدي به إلى الجنة' . و أن أفكاره الفاسدة وأقواله وأفعاله الفاسدة تؤدي به إلى الجحيم وفي كل صفحة من صفحات الياشنا تتردد هذه الحكمة:

' إن ما تزرعه تحصده ' .

' الشر بالشر ، والخير بالخير يجزى .

' الشقاء للشرير ، والسعادة للعادل ' .

' تعسا لمن يظلم العادلين ' .

' يالبؤس الشرير ، والخلاص لمن يقيم على الاستقامة ' .

ذلك هو جوهر التفكر الزرادشتي المتعلق بالحياة بعد الموت. ولم يسبقه أي مفكر أو مرشد ديني إلى فهم فكرة العقوبة والمثوبة بمثل هذا الوضوح.

عروج الروح العادلة

يدخل الإنسان بعد موته الجنة أو الجحيم إذا رجحت أعماله الصالحة على أعماله الفاسدة، والعكس بالعكس، وهذا هو النذير الذي يعبر عنه 'البانام – أي – إيزاد' (Banam - I-Zead) : ينبغي للمرء أن يتزود من العالم المادي لعالمه الروحي لكيلا تلقى الروح العذاب. وفي اليوم الرابع من الوفاة، تعبر الروح الصراط المسمى شينفات (Chinvat) ، الذي يصل عالمنا بعالم الغيب. أما أرواح الصالحين الذين

حافظوا على تعاليم زرادشت، فتعبر الصراط بيسر، وتدخل جنة النعيم. وأما الذين ضلوا عن سواء السبيل فإنهم يقفون وهم يرتعدون عند جسر الحساب، تعذبهم آلام ضمائرهم، وينادون بالثبور، فقد أدت بهم ضمائرهم ذاتها إلى الخسران، والغوص في روح الفساد. وإليكم نصا يصف وصفا مجازيا، عروج الروح إلى السماء: وبعد انقضاء الليلة الثالثة، حينما يبزغ الفجر، تمر روح الإنسان العادل تحت الأشجار، تتنسم الأريج العطر، كأنه ريح الجنوب، نعم، ريح مناطق الجنوب، رائحة زكية كأطيب ما تكون الروائح. ويخيل إلى روح ذلك الإنسان الصالح، أنها تتنسم الريح بمنخريها، فتقول: 'من أين تهب هذه الريح، الريح العطرة التي لم يتنسم منخري أطيب منها؟'.

ويخيل إليه أن ضميره يخطر أمامه على صورة عذراء جميلة، وضاءة، بضة الذراعين، شهمة، رائعة، هيفاء، ناهدة الثديين، فارعة القوام، نبيلة، شريفة النسب، بنت أربع عشرة، كأجمل ما تكون المخلوقات.

حينئذ تسائلها روح الإنسان الصالح: 'من أنت من العذارى، يا أجمل عذراء رأتها عيناي؟'.

فيجيبه ضميره قائلا: 'أيها الفتى، ذا الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، ويا ذا الضمير الخير. كل يحبك للبهاء، والصلاح، وطيب العطر، والشجاعة، والطهر التي تراءيت لي بها'.

'لقد أحببتني أيها الفتى ذا الأفكار الصائبة والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، ويا ذا الضمير الخير للبهاء والصلاح وطيب العطر والشجاعة والطهارة التي أتراءى لك بها'.

وحينما كنت ترى الناس منغمسين في الكفر وعبادة الأصنام، يفسدون في الأرض ويدمرون النبات، تكبح نفسك بترتيل التسابيح المقدسة، وتتقرب إلى الأمواج، صانعة الخيرات، وإلى نار 'أهورا مزدا'. وتدخل البهجة على نفوس الصالحين، المقبلين عليك من قريب أو بعيد'.

'لئن كنت طيبا فقد زدتني طيبا، ولئن كنت جميلا فقد ضاعفت جمالي، ولئن كنت مفضالا فقد وجهت إلي المزيد من الفضائل، ولئن كنت في منزلة سامية فقد زدتني سموا. فأنا ثواب تلك القرابين التي قدمها الصالحون زمنا طويلا، إلى أهورا مزدا وتقربوا بها إليه'.

فأول درجة تصعدها روح الرجل الصالح تجعله في جنة الفكر الصائب. وثاني درجة تدخله جنة القول الرباني، ويدخل بالثالثة جنة العمل الصالح. وأما الرابعة فتمهد له السبيل إلى الأنوار التي لا انتهاء لها أبد الآبدين'[1]. ذلك هو المفهوم الجازم، العقلاني والروحاني، عن الجنة مقام الفكر الأفضل، أو الحياة الفاضلة. وأما الكلمة التي تعبر عن الجنة في الفارسية الحديثة فهي: 'بهشت' (Behesht)، وهي صيغة أخيرة من الكلمة الأفستية 'فاهشتا' (Vahishta)، التي تتطابق معها تماما، من حيث الاشتقاق، الكلمة الإنكليزية (Best) : الأفضل. احرص على أن تكون اليوم فاضلا (Beh)، والأكثر (Behter) غدا، والأفضل (Behest) بعد غد. تلك هي المراتب التي تؤدي إلى مستقر روح الخير، كن فاضلا كن الأفضل في الأفكار والأقوال والأفعال، ولسوف ترقى إلى الجنة تلك هي بكلمات موجزات، الفلسفة الزرادشتية عن الحياة الآخرة. فليست الجنة والجحيم - من حيث المبدأ – معدتين لمقام الأرواح بعد الموت. فما الجنة سوى أفضل حياة،

---

[1] ياشت، 22 ، 7 ، 15 (من ترجمة الدكتور : دهالا) .

أو المسرح لأفضل حالة عقلية. ويتطابق الجحيم مع الحياة الأسوأ، أو مع مجال الفكر الأسوأ.

يتوسط الجنة والجحيم مقام خاص بالأرواح التي تكافأت أعمالها الصالحة وأعمالها الفاسدة. وهذا ما يدعى عقيدة 'هامستاجان' (Hamestagan)، وهي تشغل المكانة الأولى في الأفكار الأخروية من المرحلة البهلوية الأخيرة. وإن ما يميز العقيدة الأخروية الزرادشتية، كما ألمح إليه الدكتور دهالا هو التناظرية بين مجمل نظامها، مما يستدعي وجود هذا المقام الذي تستقر فيه حتى يوم الحساب، تلك الأرواح التي أثقلتها خطاياها عن الصعود إلى الجنة ولم تهبط بها حتى قرار الجحيم[1].

---

[1] اللاهوت الزرادشتي.

الفصل الثاني عشر

الغفــــران النهائــــي

فيما وراء الرجاء في حياة أخرى فردية، نجد فكرة الختام المجيد، أو الاستفاد لمجمل الخليقة. تشير الجاتا إلى عصر أو فترة تنتهي فيها الدورة الكونية، وتتوقف حينئذ، عملية الخلق، ويبلغ تطور الكون غايته المقدرة له. كما أن عملية العالم تبلغ استفادها الختامي، مثلما تصورها 'أهورا مزدا' ونظمها في فجر الخلق. حينئذ ينهض آخر المخلصين ساوشيان (Saoshyan)، فيطهر الكون ويجدده على أكمل وجه، ويمحو أعمال 'انجرا مينيو' الفاسدة، ولا يترك من آثارها شيئا. وتقاد كل أرواح الأشرار خارج الجحيم بعد أن اغتسلت، وتطهرت، وقضت مدة عقوبتها. وتتجلى كذلك أرواح الأبرار، وبذلك يكتمل النشور، أي: ريستا خيز (Rista khez).

تجديــد العالـــم

يدخل العالم بعدئذ، دورة جديدة، محررا من كل شر وكل بؤس، فتيا على الدوام، حافلا بالبهجة الأبدية، وتعيش الأرواح كلها حياة سعيدة، لا توصف بركتها، ولا يدرك سامي مجدها: ويقول 'الزمياد ياشت' (Zymyad Yast): 'هنالك يشيد (ساوشيان) العالم الذي لا تصيبه الشيخوخة، ولا يعرف الفناء، ولا التدهور، ولا السقام. بل يحيا ويتطور مزودا بقوة تحقيق إرادته، حينما ينهض الموتى، وتقبل الحياة

والخلود، ويشاد العالم طبقا لإرادة الرب. وبذلك يتحقق انتصار آشا (Asha) أو الاستقامة، على دروج (Druj) الكذب.

وما مصير 'انجرا مينيو' أب الشر؟ لا تذكر الكتب المقدسة شيئا عن مصيره. ولكن يمكن الافتراض بأنه حينما يزول حكم الشر فلا يعود عمله مؤذيا. فالهزيمة النهائية لدروج تقتضي بالضرورة، هزيمة آرشي — دروج' (Archi - Druj) وهزيمة انجرا مينيو (Angra Mainyu).

شعار العقيدة : إلى الأمام

لن يستطيع الإنسان التواصل مع الجوهر الإلهي وحضرة الرب، إلا إذا وصل حالة الكمال الأسمى. ولكن النبي يبشر بالأمل في الوصول إليه حينما يتجدد العالم، أو قد يصل إليه أثناء وجوده الدنيوي. تقدموا، تقدموا دون توقف. كان هذا شعار العقيدة. والمؤكد أنه قد أخذ بالحسبان العقبات الكثيرة التي يواجهها التقدم حتما في كل مرحلة من مراحله. ولكنه ظل مقتنعا بأن هذه المسيرة إلى الأمام قد تتأخر حينا بعد حين، ولكنها لن تتوقف نهائيا. وبذا يجد الزرادشتي تشجيعا من يقينه بأن الكائنات الإنسانية تستطيع خلال المسيرة اللانهائية للزمان غير المحدود، أن تساهم في تشييد ملكوت العدل على الأرض. فلا يجزعن المرء من ضيق المجال الذي يبذل فيه جهوده، ولا يضعفن أمام ضخامة العمل الذي ينبغي إنجازه. فكل كينونة فردية ينبغي لها أن تضيف شيئا ما إلى المجموع الذي تتجزه حياة الجنس البشري، وكل امرىء ملزم بتكريس حياته، وقصر نشاطه على ما فيه فائدة الجنس بأكمله.

رسـالة الأمـل التـي يحملهـا النبـي

هذا هو الهدف النهائي الذي يجعل الأفـراد متضـامنين بعضـهم مـع بعـض في كـل الأزمنـة، وكـل الأقطـار، وأن يتحـدوا فيمـا بينـهم لأنـهم سيعمرون هذا العالم في نهاية الزمان. وبفضل الجهود الدائبة للأجيال المتعاقبة، وبفضل المنجزات التي يراكمها الجنس البشري شيئا فشيئا، سيتحقق الـهدف المنشـود، في نهايـة المطـاف، هنـالك تجـد الدرامـا الإنسـانية حـلا لـها، وينـزل ستار النهاية. ولسـوف ينشـأ الصـراع بـين الخير والشر، ولسوف يتحقق انتصار الخير على الشر، ويشيد ملكوت العدالة. وسيحيا الأبرار في عالم متجدد. هذا هو المستقبل الرائع الذي سيتوج جهود الفرد بتعاونه مع خالقه لإنجاز هذا الصرح الهائل. هنالك يدخل الإنسان في البهجة الأبدية 'لأهورا مزدا'.

لقد حمل النبي إلـى عالمنـا رسـالة الأمـل هـذه التـي بعثـها الأب السماوي :

' هذا ما أسألك ، يا أهورا مزدا

كيف يمكن للمؤمن الذي يحرص على ازدهار منزله

ومنطقته وبلاده ، أن يتشبه بك ؟

ومتى يكون جديرا بك ؟

وأي أفعاله أفضل ما تقرب إليك ؟

كل ذلك واضح للحكيم ، كما هو واضح لمن يمعن التفكير

ومن يدعم الحقيقة بكل ما أوتي من قوة

ومن يدعم الحقيقة بأقواله وأفعاله

ذلك هو نصيرك الأكثر قيمة ، يا مزدا أهورا !

على صديقك الحق بفكره وأفعاله

يا أهورا مزدا ، ستفيض بالنعمة والسعادة والخلود

وستهبه اتصالا مؤبدا مع الحقيقة ، ومع ملكوت السماء

وستهبه ، دعما له ، قوة روح الخير.[1]

[1]D.J. Trani, "The divine Songs of Zarathustra".

الفصل الثالث عشر

قانون الأخلاق الزرادشتية

يتجسد المبدأ الأساس للعقيدة في الثلاثية: هوماتا، هوختا، هفارشتا، أي الفكر الصائب، والقول الطيب، والعمل الصالح. وبالنظر إلى هذه العبارات الثلاث التي هي خلاصة كل أخلاق ومادتها، يمكن ترتيب الثلاثية النقيضة: دوشماتا، دوزوختا، دورفارشتا، أي: الفكر الفاسد، والقول الفاسد، والعمل الفاسد.' الفردوس ملك كل الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، وهذا جلي لمن كان طاهرا'، تلك هي النصيحة البسيطة التي تقدمها صلاة فيسبا هوماتا. ويقول الورع في صلاة أخرى ما يلي:

'في مستقبل الأيام سأكون صارما من أجل الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة التي يجب أن يفكر فيها جيدا، وأن تقال بجودة، وأن تفعل بإتقان'.

تربية الفضائل المدنية

يولي قدماء الزرادشتية أهمية كبرى لممارسة الناشئة واجباتهم المدنية. والجوهري لديهم تقديم هذه التربية إلى الأطفال في مرحلة يكونون فيها أقدر على التلقي، بحيث يعمقون اهتمامهم بمصلحة الجماعة، وينشطون في نشر الشعور الجمعي بين المواطنين. ويقدم إلينا

إكسنوفون (Xenophon) في كتابه: "Gyropedie" معلومات ثمينة حول المدارس في إيران، حيث تلقن هذه المبادىء. وإنها المرة الأولى التي نجد فيها التربية المدنية في التاريخ العالمي.

كتب هذا المؤرخ يقول: 'في كل مدينة فارسية توجد ساحة في الهواء الطلق، تمنع فيها بصراحة ممارسة التجارة والصناعة. وقد شيد فيها القصر والمباني الحكومية الرئيسية. وفي ناحية من الساحة مدرسة للأطفال من سن الخامسة حتى السادسة عشرة (أما من هم دون الخامسة فيبقون في دار الحضانة)، وفي الناحية الثانية المجلس المخصص للفتيان من السادسة عشرة حتى الحادية والعشرين، وهي سن الفتوة. وفي الناحية الثالثة مجلس الرجال الراشدين في سن النضج. أما في الناحية الأخيرة فيوجد المجلس الذي يجمع الشيوخ الذين تجاوزوا سن الخدمة العسكرية. أما البرنامج فمدعاة إلى الإعجاب. ولا تلقى الدروس، بل تقام المناظرات و'المساجلات' التي تدور حول الأحداث العملية من حياة المدرسة، ويديرها الرئيس الأكبر سنا، المعين لهذه المهمة، وتشغل هذه الاهتمامات القسم الأكبر من النهار ويخصص ما بقي منه للفروسية والرمي، في المعسكر'. ويضيف إكسنوفون:

'يرسل الفرس أبناءهم إلى المدرسة ليتعلموا الاستقامة، كما نفعل نحن حين نرسلهم ليتعلموا فنون الأدب'.

ومن المناسب هنا ذكر بعض الفضائل التي يتردد ذكرها في الكتابات، والمتوقع أن تمارس تأثيرها في حياة المؤمنين ومزاجهم.

الاستقامة

تطلق كلمة آشا (Asha) الأفستية على القداسة أو الاستقامة. وهي ترجمة بتصرف، لأن هذه المترادفات التقريبية تضعف الفكرة الأصلية لكلمة 'آشا'. وهي فضيلة دينية سامية، كما تفهمها 'الجاثا'. و 'الآشا' في أناشيدها، هي حقيقة روحية عميقة، أو قانون روحي قد صيغ الكون وحكم بالانسجام معها. وتنسب إلى 'آشا' كل الظواهر الدنيوية. وينبغي لكل إنسان أن يخضع لهذا القانون العظيم، لأن 'آشا' هو الذي يقوده، ويجعله في حضرة 'أهورا مزدا'. فعبارة 'آشا' شديدة الشمول في الأخلاق الزرادشتية. فهي تعني النظام، والتناظر، والترتيب، والانسجام. كما تحتوي كل الأصناف الممكنة للطهارة، والأمانة، والصدق، والصلاح، بكل ما توحي به من شتى الأفعال. وإن أول صلاة يستظهرها الطفل الزرادشتي ليست سوى الحكمة 'آشيم فوهو' (Ashem Vohu)، وإليكم مضمونها:

'الاستقامة أفضل الهبات، وهي السعادة الإلهية. وسعيد من يحيا كي يدافع عن الاستقامة الفضلى'.

عن النظام والترتيب تنتج الاستقامة، وعن الفوضى والفتنة ينتج الظلم. وإن 'دروج' نقيض 'آشا' يعني الفوضى. والدفاع عن 'آشا' في كل الأوقات ومختلف الظروف، هو واجب محتوم على الزرادشتي الحقيقي. والواقع، أن كل التعاليم الدينية تبدأ بألف باء الاعتقاد هذه. 'فآشا' هو الحق الخالد، والحقيقة الوحيدة، ومصدر كل المظاهر. ولقد بين علماء الاشتقاق أن كلمة 'آشا' من الأفستا تتطابق صوتيا مع كلمة ريتا (Rita) من الفيدا القديمة. لكن الأمر الأكثر إدهاشا وأهمية هو هوية هذين المفهومين. إن معنى (Rita) ومعنى (Asha) متطابقان تماما، ويستدل من هذا أن الفكرة الأساسية والوحيدة للاقتراب من الرب،

هـي مشتركة بين كل الشعوب الهندو – إيرانيـة. وإن الإنســان لـيرجو الاتصـال بـالأب في السـماوات بوسـاطة هـذا القـانون، وهـذا الطريـق، طريق آشا (Asha Pantao) أو طريق ريتا (Ritasya Pantha) .

'إنـي إلى جـانب أولئك الذين يقيمـون النظـام، ولسـت مـع الذيـن يشيعون الفوضى'، يقول أهورا مزدا في هوم ياشت (Hom Yasht) .

'لا يوجد سوى درب واحد، درب آشا، وما سواه زائفـة'، هـذا هـو التحذير الذي تقدمه 'الياسنا'.

وما جزاء الإنسان الذي يسلك هذا الدرب؟ يشار إلى هذا الجزاء برهافة رائعة في هذه الأبيـات مـن هـوش بـام (Hush Bam) أي نشيد الفجر:

'يـا أهـورا مـزدا! اضمـن لنـا أننـا بفضـل آشـا، وبآشـا الأتم كمـالا، نكون قادرين على اجتلاء طلعتك، والدنو منك، والاتحاد بذاتك'.

وبذلـك توجـه 'آشـا' أو الطـهارة، الإنسـان إلـى الصحـة ونضـارة البدن، إلـى الصحـة وقـوة الفكـر، وتحقـق التعبـير الأسـمى عـن فكـرة النظافة القريبة من التقوى. وليست قريبـة منها فحسـب، لأن النظافـة إحدى أشكال التقوى.

المتمسك بالحق حبيب إلى أهـورا مـزدا. 'اسـلكوا سـبل الخـلاص، حيـث يقيـم أهـورا مـزدا بقداسـته'. تلـك هـي صـلاة أحـد أتقيـاء الزرادشـتية. وإليكـم مـا تقولـه الجاتـا أوشـتافايتي، (Gatha Ushtavaiti): 'أيمـا امـرىء أرشـد الآخريـن إلـى دروب الإخـلاص الفاضلة في هذا العالم المادي، تلك الدروب التي فيها مقام أهورا مزدا، فإنه ينال الثروة الصالحة السامية'.

إن أكثر من مؤلف كلاسيكي يروي بإعجاب، الطريقة الدائبة التي تغرس بها لدى قدماء الإيرانيين فضيلة الحق، أو الإخلاص. يقول هيرودوت: 'إنهم يعتبرون قول الكذب أسوأ الرذائل. وأما ثانيها فهو الاقتراض. وذلك لأسباب عديدة، ولكن أخصها أن أي مدين يجد نفسه مسوقا إلى ابتكار الأكاذيب'[1].

العدالـــة

ترى الأفستا أن العدالة والإخلاص صنوان. لذلك فإن 'أرشتات' أو 'أشتاد' (Ashtad)- (Arshtat) ، أي: 'اليزاتا' الذي هو سيد الإخلاص، يشترك دوما مع 'راشنو'، اليزاتا المكلف بالعدالة. ويوم الحساب، أي رابع يوم بعد الوفاة، يحاسب روح المتوفى 'ميهر دافار' (Meher Davar) ، القيم على العدالة، ويساعده نائباه 'أرشتات' و'راشنو'. ويدعو الزرادشتي في صلواته اليومية 'راشنو' بالعبارات الآتية:

' نسألك الكلام المنطوق بصدق . نسألك الطاعةالعادلة.

نسألك الاستقامة الشريفة . نسألك الكلام الموحي بالقوة

والمروءة. نسألك السلام الذي يمنح النصر.. نسألك الحقيقة التي تنشر الازدهار في العالم، وهي الصفة الأولى لديانة مزدا- ياسنان.

نسألك باسم راشنو الأمين ' (فيسباراد ، 7 ، 1 ، 2) .

---

[1] ترجمة كاري، ص: 61.

يقول 'ساروش ياست هادوخت' (Sarosh Yast Hadokht):

'إن الخطاب الناطق بالحق يغزو قلوب الحاضرين' وتعلن الجاتا أن الشهادة الصادقة والعدالة يحبهما الرب، وتدعو المؤمنين إلى رعاية فضيلة القسط والعدالة.

وهناك أمر آخر:

'ناضلوا للدفاع عن حقكم باستخدام الوسائل الكريمة، حتى مع أعدائكم'. وقد بلغ من فضل العدالة أن القاضي الصالح، العادل، غير المتحيز، يقارن بأهورا مزدا، والأميشا سبند. على حين أن القاضي الظالم يشبه أهريمن والديفا.

ويذكر المينوخراد (Minokherad) بالطريقة ذاتها، أن الحكومة الصالحة هي التي تتوجه مراميها وإداراتها إلى ازدهار المدينة، ودفع الحاجة عن المعوزين، وهي التي تلغي القوانين والقرارات الظالمة، وتستبدل بها أخرى عادلة، وغير متحيزة.

يبدأ الميهر ياشت (Meher Yasht) بالأدعية التالية التي تأمر بالوفاء بالعهود:

إن الرجل الذي يقترف إثم الإخلال بعهده إنما يرتكب جرما يشمل البلاد كلها. ولذلك لا تخل بعهد قطعته على نفسك، سواء كان مع آشو (Asho) أو مع دارفاند (Darvand) ، لأن المهم هو ما عاهدت عليه لا الذي تعاهدت معه. ولا يهم ما إذا كان المتعاقد معك درفاند أم شخصا يتبع سبلك'.

كذلك تؤكد الياسنا على الالتزام بتأدية القروض. 'ينبغي مهما يكن الحال، تأدية الديون لأصحابها، بفكر صادق، وقول طيب، وفعل خالص'.

العفـــة

إن قداسة الحياة الزوجية إحدى الفضائل التي تتكلم عنها ديانة زرادشت بكل إصرار. وهي تطلب من الزوج أو الزوجة على السواء 'الإخلاص لروح الخير، وأرقى أشكال الأمانة'. وإن العمل الشائن الذي تقوم به الزوجة لا يقل عن عمل شائن يقوم به الزوج. فقانون الأخلاق الزرادشتية يجعل كلا الجنسين على مستوى واحد بحيث لا نجد له مثيلا في تاريخ الشعوب الآسيوية.

'يابورو شيستا من أسرة هايشاتسبا وسبيتاما' أنت يا أصغر بنات زرادشت. لقد اختار النبي هذا الرجل زوجا لك، وهو مطيع لروح الخير، والاستقامة، ولمزدا. امنحيه نصائح حكمتك، وقدمي له برغبة صادقة، فروض الطاعة الأكثر قدسية'.

'إلى العذارى المقبلات على الزواج أوجه هذا التحذير، وكذلك إليكم أيها الخاطبون، فاحفظوها عن ظهر قلب، واستهدوا بها، واحرصوا على ممارسة حياة الروح الخيرة، لتكون الحياة العائلية لكل منكم سعيدة' (ياسنا ، 53 ، 3 ، 5).

إن المرأة التي تسلك طريق العفة على الدوام، تصل إلى المرتبة السامية مرتبة اليزاتا. 'المرأة العادلة، الغنية بأفكارها الصائبة، وأقوالها الطيبة، وأفعالها الصالحة، المهذبة، المطيعة لزوجها، العفة مثل أرمايتي هي الفاضلة، وهي شبيهة باليزاتا من النساء' (جاتا،4،9).

وعلى العكس، فالمرأة التي تضل عن هذا السبيل، فهي موصومة بالعار، أسوأ من أفعى أو ذئبة. وفي النظام الاجتماعي الزرادشتي لا تجد العشيقة لها مكانا. "نظرتها تجفف ثلث الماء المتدفق. نظرتها تتلف ثلث الأشجار المزهرة، الرائعة الخضرة. نظرتها تحرم الأرض الخصبة من ثلث خضرتها، وملمسها يزيل ثلث الشجاعة، وثلث النصر والإخلاص، عن الرجل العادل الذي يملك الأفكار الصائبة، وينطق بالأقوال الطيبة، ويؤدي الأفعال الصالحة. ولذلك أقول لك، ياسبيتاما زرادشت! إن مثيلاتها يستأهلن الموت أكثر مما تستأهله الأفاعي الزاحفة، أو الذئاب العاوية، أو الذئبة التي تحوم حول القطيع ثم تنقض عليه. أو الضفدعة التي تتقافز في الماء مع المئات من صغارها" (فنديداد،18، 63 — 65).

الاعتماد على الذات

إن الزرادشتية كديانة عملية تصر خاصة على المبادرة، وعلى الجهد وكرامة العمل. "لا يستقل المرء إلا إذا اعتمد على ذاته" (ياسنا، 9 ، 25).

"وإني لأطرد الكسل الذي أنحفنا. أطرد الكسل ذا اليدين الطويلتين"(فنديداد، 11، 9).

"انهضوا، أيها الناس، واصدحوا بمديح النقاء الأسمى، واصرعوا الديفا. وإلا تفعلوا يرجع الكسل ذو اليدين الطويلتين الذي ينوم العالم المادي كله، ويهجم عليكم منذ أن يطلع النهار، ويستيقظ البشر. أيها الناس! لا يليق بكم أن تناموا طويلا "(فنديداد، 18، 16).

" ليكن عيشكم من عملكم الخاص الدائب" (أشيرواد)

" لا ينال الأذى الإنسان الأمين المجتهد ، الذي يعيش بين الأشرار " (ياسنا ، 19 ، 6)

'يا مزدا ، لن ينال الكسول ، المخادع ، الإيمان الصادق أبدا ، (ياسنا ، 31 ، 16)

من يزرع القمح يزرع العدالة

'يا خالق العالم المادي، أيها العادل! ما الوسيلة إلى تدعيم ديانة مزدا – اليانية'؟

هذا ما أجاب به أهورا مزدا:

'إنها زراعة القمح بلا توان، يا سبيتاما زرادشت! وأيما إنسان يزرع القمح فإنه يزرع الاستقامة. فيجب دفع ديانة مزدا – الياسني، مئة قدم إلى الأمام، وأن ترضع من ألف حلمة ثدي، وأن تعضد بعشرة آلاف قربان'.

بهذه الكلمات ذات الدلالة الفلسفية العميقة، يبشر زرادشت بتقديس العمل، وبالنشاط المنتج، نقيض الكسل، وبالاجتهاد – نقيض الانحطاط والنقصان، وبعلاجهما أيضا.

إن البطالة صنو الشهوة والعار، وهي تستدعي شرور الجوع والعطش والمرض والألم والخنوع والانزعاج.

'إن من لا يفلح هذه الأرض

باليد اليسرى واليد اليمنى

تقول الأرض له : يا أنت

الذي لا تفلحني

باليد اليسرى واليد اليمنى

وباليد اليمنى واليد اليسرى

ستقف خانعا أمام

باب الأجنبي

بين أولئك الذين يتسولون الخبز

نعم . سيتفضلون عليك بالنفاية لتأكلها ،

أولئك الذين يملكون الشيء الوفير' .

السلاح الوحيد المتوفر في زمن زرادشت، لمحاربة شرور الجوع والعطش هو الزراعة أهم الثروات في وقتها. وقد ورد في الفنديداد ما يلي:

'حينما ينمو القمح تصاب الأرواح الشريرة بالفزع، وحينما تتفتح الحبوب تسعل الأرواح الشريرة، وحينما يرتفع القمح على سوقه تنخرط الأرواح الشريرة في البكاء، وحينما تظهر سنابله تولي الأرواح الشريرة الأدبار. وفي المنزل الذي يقلب فيه القمح على الأرض تنهار قائلة:

' يبدو أنهم يقلبون

تحت أضراسهم حديدا محمى حتى الاحمرار

حينما يخزنون القمح الوفير'.

الاعتناء بالمواشي

يمجد النبي البقرة بلغة مميزة لذلك العصر الرعوي فيقول:

' المجد للبقرة ، والكلام الطيب لها ، والنصر لها ، العلف والمرعى لها .

فلنعمل من أجل الأبقار ، لأنها توفر لنا الطعام '(ياسنا ، 2.).

لقد رسخ زرادشت في الأذهان فضيلة خاصة، هي العناية بالجاسبند (Gaspend) الاسم الذي يعني الحيوانات الأهلية، المسالمة المفيدة، مثل الأبقار والماعز، والنعاج، والكلاب، ودعا إلى الحفاظ عليها .

'لنتحد بالفكر مع بهمن أميشا سبند روح الخير'، فالزرادشتي المؤمن يسأل هذا الفضل في صلواته. وروح الخير هذا 'ينشر السلام في وسط الخليقة الصالحة، والحيوانات من كل جنس هي تحت حمايته في هذا العالم. والناس الذين يعلفون هذه الدواب، ويرعونها، ويحفظونها، يلبسون ما يكفيهم من فاخر الثياب'.

'إن الإنسان الذي يريد التصالح مع 'فوهو مانو' الأميشا سبند القيم على روح الخير وحاكم الخليقة الحيوانية في هذا العالم، ويريد السعي إلى سعادته، هو من يرقى بالكائنات التابعة 'لفوهو مانو'. ولكي يبقى 'فوهو مانو' معه على الدوام، ينبغي له أن يقيم مع الماشية علاقة جيدة في كل مكان وزمان، مهما أصابه أو ناله، وأن يعمل على إسعاد هذه الحيوانات. وفي أيام الروع وفترات الاضطراب التي تصيبها، ينبغي له أن يوفر لها الحياة ويجنبها الغاصبين وأهل البطالة، ويجب ألا يهبها إلى شخص مستبد وشرير. بل يحفظها في ركن مريح ودافئ.

وفي الصيف، يخزن لها العلف من تبن وحبوب، بحيث لا تضطر إلى الرعي في برد الشتاء. ولا ينبغي له أن يفرقها عن صغارها، وأن يحرمهن حليبها. لأن الدواب في هذا العالم هي قرناؤه (قرناء فوهو مانو). فلتشملوها بالرعاية. وكل من يرقى بهذه الماشية المنتجة يرتفع ذكره في هذا العالم، ويغدو بهاء 'أهورا مزدا' بهائه في الحياة الآخرة.

(شاياست الشاياست " Shayast la shayast "15، 9، 11).

الرحمة

تذكر الرحمة وكأنها صفة الإنسان القوي. وهي تتوجه بالمجد 'فيغدو الأقوى بين أقوى الأقوياء، المتوج بأفضل من التاج. وهي إحدى صفات الرب ذاته'.

يسأل زرادشت 'اهورا مزدا': كيف تتبغي لنا عبادتك، أنت وتابعك أميشا – سبنتا؟'.

فيجيب الكلي القدرة: 'من أراد أن يرضي 'أهورا مزدا' في هذه الدنيا، فليسمع إلى تطوير خليقته 'أهورا مزدا' (أي تفضيلها والزيادة فيها). وينبغي لمن أدناه 'أهورا مزدا' إليه، أن يسعد العادل، وأن يدخل السلوان على قلوب المتألمين بأن يحميهم ممن يميل فكرهم نحو الشر'. (بهلوي رفايت. نص ملحق بالشاياست، الشاياست ، 15 ، 3 و 7).

الإحسان

يشغل الإحسان رأس قائمة الفضائل الإيجابية التي ينبغي لمريد زرادشت أن يرعاها. وهي إحدى الوصايا الرئيسية لهذه الديانة.

' إن الذي يساعد الفقير يعترف بملكوت الرب ' (أهونافار).

' يا مزدا ؟ ما ملكوتك ؟ وما إرادتك لكي نعمل وفقها للوصول إلى صداقتك ؟ '.

فيجيب أهورا مزدا:

تكتسب صداقتي بمساعدتك إخوانك الفقراء الذين يعيشون عادلين مع روح الخير (جاتا أهونافاد ياسنا ، 24 ، 5).

' أيها المزديون الزرادشتية ! شدوا عزائمكم .. وواسوا أولئك الغارقين في الآلام ' (فيسباراد . 15، 1).

ارزقني ولدا يخفف عني آلامي' (أتاش نياش ، ياسنا ، 62 ، 5).

وهذه دعوة أخرى من الياسنا:

' اجعل الكرم يتغلب على البخل في هذا البيت '.

ومع ذلك فإنه ينبغي للإحسان أن يكون نافعا، وأن يستخدم ببصيرة. ولئن كان من المناسب أن ينال إحسان المرء من هو جدير به، فإنه من المستهجن أن يوضع في غير أهله.

والبخل شيء مستنكر تماما:

'من يملك القدرة على الإحسان ولا يفعله دون تردد يصيبه الدمار دون أن يسعى إليه'.

' إن الذي لا يملك حس الإحسان تتكاثر عليه المصائب

فالتآخي الزرادشتي لا يترك أدنى مجال للنزعات الأنانية الدنيئة.

ولا يتقبل الرب صلوات أولئك الناس ولا قرابينهم. يقول الرب الكلي القدرة في الأبان ياشت (Aban Yasht) :

' إني لا أتقبل قرابين الأشرار، ومن في قلوبهم قسوة، والأنانيين'.

الحث على التعليم

لا يقتصر الإحسان على مواساة البؤس فقط وتلبية المطالب المادية للمعوزين المحيطين بنا، بل يهتم كذلك بتلبية احتياجاتهم الفكرية والأخلاقية والروحية.

وتؤكد الكتب الدينية للبارثيين، على واجب تيسير وسائل التعليم لكل الرجال والنساء، متزوجين وعزابا، أتقياء وأشرارا. وإن أحسن أعمال الخير مساعدة من يفتقر إلى التعليم.

' إذا جاء الناس إليكم إخوانا في الدين، أو أشقاء، أو أصدقاء باحثين عن المعرفة فينبغي أن تقدموها إليهم بأطيب الكلام' (فنديداد، 4 ، 44).

'إن من يطلب نور المعرفة ، يرغب في هبات الأترفان (المعلم الروحي) Athravan ، وإن من يرغب في كمال المعرفة ، يرغب في هبة أترفان ' (زمياد ياشت ، 53).

إن الإحالة إلى الأترفان يمكن قراءتها بمساعدة الأبيات التالية من الفنديداد:

'يازرادشت ! إنك لتدعو أترفان (معلما روحيا) من يبحث آناء الليل عن المعرفة المنتجة للبهجة، التي تخلصه من الشجن، وتؤمن له الهناءة على صراط شينفات. وتحقق له رغائب الدنيا، وتوصله إلى الطهارة وإلى أفضل شيء في الوجود (الفردوس)'.

'لا تحرمن امرأتك ، وأطفالك ، وإخوانك ولا ذاتك من التعليم، لئلا يصيبك البؤس. ولن يكون لديك حينئذ ، دافع إلى التوبة'.

بند نامة- إي- أدار بند ماراسبند

.Pand-Namah-I Adarband Maraspend — 14

'ما هو أسمى أعمال الناس؟'

إليكم جواب الدنكارد: 'وفروا المعرفة لمن هم قادرون على تلقيها وإنتاج كل أنواع القداسة'.

ونقرأ في نص بهلوي آخر هو 'سيكند – جومانيك – فيجار' (Sikand — Gomamik - Vijar) ما يلي:

'مهما كان ضئيلا مقدار العلم الذي يمنحه المرء لمن هم قادرون على تلقيه، فذلك أفضل من رجل عالم لا يفيد أحدا بعلمه أو يشرك فيه قوما يستحقونه '. وليس معنى هذه العبارة أنه يجب استثناء المذنبين، فإن زرادشت يؤكد على واجب هداية من ضلوا عن سواء

السبيل والارتقاء بهم. وليست أفضل خدمة يقدمها المرء إلى المجتمع أن يكون صالحا ومجتهدا فحسب، بل أن يعمل كذلك على إصلاح المجتمع نفسه، وذلك بنشر المعرفة بين أفراده سواء كانوا فاسدين أو صالحين.

ومذكور في الياسنا:

أن أيما امرىء عاقب شخصا على فعل الشر ثم هداه بعد أن عاقبه فإنه يقدم بذلك إلى 'أهورا مزدا' خدمة دافعها الحب، خالصة له.

'إن من يعاقب المذنب سواء بالقول أو الفكر أو بالاثنين معا، ثم يهدي هذا المذنب فإنه يحقق إرادة 'اهورا مزدا' ويعمل ما يرضاه'.

إن الواجب، المسطر بهذه الطريقة هدفه الاستجابة إلى متطلبات المواطنين الأخلاقية والروحية، ويعاقب من لا يفعله. ومهما كان الإنسان فاضلا، ثم غفل عن هذا الواجب العظيم، فإنه يلقى عقابه يوم الحساب. وإليكم ما يقوله 'البندنيش' (Bundenesh) :

' سيرى كل امرىء جزاء أعماله الصالحة أو الفاسدة. وفي الخاتمة – وفي وسط الأنجومان " Anjuman – سيكون الإثم واضحا كما لو أنه نعجة بيضاء وسط قطيع النعاج السوداء. في هذا المحشر يعاتب المذنب صاحبه الصالح أو صاحبته الصالحة في الدنيا، لأنه لم يهده سواء السبيل. ويقول: 'لماذا لم تعلمني فعل

الخيرات التي كنت تفعلها أنت؟' حينئذ يضطر الصالح إلى مغادرة المحشر نادما لأنه أهمل هذا الواجب.

الخدمــة وفعـل الخيـر

إن العمل الصالح الواحد لخير من ألف دعاء أو صلاة. ومذكور في أحد أدعية 'أفرين — إ — بوزورجان' (Afrin - e- Buzorgan):

'كن ساعيا إلى الخيرات كما يفعل السيد 'أهورا مزدا' مع خليقته'. كذلك تحث الفسباراد قراءها على واجب الخير والتضحية.

'كن مستعدا بقدميك ويديك وفكرك أيها المزدي الزرادشتي لإنجاز الخيرات المناسبة، وفي الوقت المناسب، ولاجتناب الشرور غير المناسبة، و التي لا تناسب وقتها. كن ساعيا إلى إنجاز أفعال الخير في هذه الدنيا، ولنجدة الفقراء والمحتاجين'.

وتنبه 'البنام — إي — إيزاد' الزرادشتي إلى واجبه في محاسبة نفسه على أعماله في نهاره. ومن واجبه، كل مساء قبل إخلاده إلى النوم، أن يحاسب نفسه بحزم ويسائلها:

'كم عملا من أعمال الخير قد فعلت اليوم، وكم عملا كنت قادرا على إنجازه؟ وكم إثما اقترفت اليوم، وكم إثما كنت قادرا على اجتنابه ؟'.

تلك هي الأخلاقية والفلسفة العملية الزرادشتية. إنها عقائد تدعو إلى الرحمة والحق، والعمل والمبادرة والرأفة والإحسان التي ضمنت ثبات عقيدة زرادشت، ديانة الحياة الصالحة، وبقاءها إلى أيامنا هذه. إن أحد الأدعية المسائية الأكثر حثا على التقوى هو: كن ساعيا إلى الخيرات كما يفعل السيد "أهورا مزدا"، مع خليقته". وهذا يتلاءم تماما مع النغمة السائدة في الفلسفة الزرادشتية كلها: فهي تقابل بين صفة الرب وغاياته وبين طبيعة الحياة الصالحة للبشر: "كن متشبها بالرب". إن فلسفة الحياة كلها قائمة في هذه الكلمات البسيطة. فالتشبه بالرب هو الوسيلة الوحيدة للاتصال بالأب السماوي ولا سبيل غيرها تؤدي إلى الجنة.

الفصل الرابع عشر

العبادة

لا نجد في تعاليم زرادشت كما عرضتها الجاتا، أي ذكر للشعيرة أو العبادة، فلا قرابين ولا أضاحي. وكل ما تطلب الألوهية من المؤمنين، ذكاء الفؤاد، واجتهاد الروح لسلوك سواء السبيل. وهذا أمر شديد الوضوح أكثر مما هو عليه في الديانة الإيرانية القديمة بشكلها المتزمت (الأرثوذكسي)، التي تتضمن التضحية بالحيوانات والقرابين إلى الديفا.

إن العبادة لدى أتباع زرادشت تتلاءم مع تعاليمه التي اتخذت شكل الإعلاء من شأن المثال الأخلاقي والروحي فقط، والرغبة العارمة في تحقيق هذا المثال. وإن أول صلاة يؤديها الطفل الزرادشتي هي آشيم فوهو'، أي: الدعاء إلى آشا، أي الاستقامة، بعبارات موجزة. وهي أجدى العبارات المقدسة ذات الأهمية الكبرى، وتعتبرها نصوص الأفستا 'الماترا سبينتا' (Mathra spenta) . ولدينا الكثير من مثل هذه الأدعية. وهي على درجات متفاوتة من الفاعلية، ولكن الكلام المتميز للاهوت الزرادشتي، وأسماه وأقواه، وأكثره فاعلية، ذاك الذي هو أكثر شفاء، وأقوى بطشا، ويؤدي إلى الانتصارات الباهرة، ليس سوى 'أهونا فايريا' (I' Ahuna Vairya) وتتضمن هذه العبارة إحدى وثلاثين كلمة، تقابل كل واحدة منها أحد المقاطع التي تؤلف مجمل الكتب المقدسة. وإن أقدس التعابير المنطوقة على الإطلاق، أو التي تذكر اليوم، لهي

العبارة التي نطق بها 'أهورا مزدا' ذاته قبل وجود الكون، وبشر بها النبي المقدس. وهي تلخص وتختصر القانون كله. وحين يتلوها المؤمن المتعبد فإنه ينال بها ثواب إنشاء مئة من الجاتا. وكان زرادشت نفسه إذا نزغ فيه روح الشر يدفعه عنه بأن يرفع صوته بتلاوة هذا 'الكلام' العامر بسلطة عجيبة.

الدعاء إلى أهورا مزدا

' بروح الخير والاستقامة، بأفعال الحكمة وأقوالها نتقرب إليك. وإليك نرفع دعاءنا، ونعترف بأننا مدينون إليك 'ياأهورا مزدا'!

وبكل الأفكار الصائبة، وكل الأقوال الطيبة، وكل الأفعال الصالحة نتقرب إليك'.

' وبمثل ما فكرت به، يا 'أهورا مزدا'، وبمثل ما أمرت به، وما فعلته من خير، فإننا نتقرب به إليك، ونحمدك ونعبدك. كذلك ندعوك، ونعترف بأننا مدينون إليك'.

'يا مزدا ! هب لنا في هذه الحياة، وفي الحياة الروحية أن نكون قادرين على الاتصال بك، وأن نحقق الاستقامة في كل الأوقات'.

' يامزدا أهورا ! أنكون قادرين على الوصول إلى ملكوت الخير إلى الأبد ! أنت، في العالمين، الحكيم الذي سمت حكمته على الموجودات. وأنت ملك الخير لنا جميعا، رجالا ونساء. ونحن ملك يمينك، أيها المعبود، المشهور، يا مالك الحقيقة. أنت يا من سمت حكمته على

الموجودات في العالمين، كن جسدنا وحياتنا. وبك، يا اهورا مزدا !، نستحق ونتال البهجة طول الحياة. وإن حبنا لك، واتكالنا عليك، ليهباننا القوة. يا من سمت حكمته على الموجودات! هبنا الفرحة والسعادة في كل الأوقات'.

' كذلك تقرب زرادشت إلى مزدا. تقرب إليه بجسده، وبروعة فكره الصائب، وخضوعه الطوعي، وقوة أفعاله وأقواله الساعية إلى تحقيق الاستقامة'.

' هذا ما اخترناه لأنفسنا، يا 'مزدا أهورا'، يا آشا الجليل! اخترنا أن نفكر، وأن نقول، وأن نفعل ما هو الأفضل للعالم. وبسبب الثواب الذي تجزي به أفضل الأعمال فإننا نبذل جهدنا – سواء كنا علماء أو جهلة، سادة أو عبيدا – لتقديم الراحة والعلف للمواشي. إننا نمتلك إلى الأبد – القانون الأفضل الذي وهبه لنا الزعيم الأفضل. فأمر به الناس، ونهيىء أنفسنا له، ألا هو:

قانون 'مزدا أهورا' ، وآشا فاهيشتا'. وبما أن كل إنسان – من ذكر أو أنثى – يمتلك المعرفة الواضحة، فإنه يعمل طبقا لأفضل المعرفة، ثم يعلمها لمن ينبغي لهم تنفيذها حين تقتضي الأحوال.

وبما أننا نعلم أن أفضل الأمور تقديم العبادة والحمد إلى 'أهورا مزدا'، وإطعام الماشية، فإننا نفعلها ونعلم الناس كيف يفعلونها، بأقصى ما لدينا من قدرة. إنما في قانون آشا وضمن شعب آشا، توجد أفضل حياة لكل

الناس، ثوابا في العالمين. وإن ما أنزلته يا أهورا مزدا سوف ننشره، ونرتجي الخير لآشا.

'هبني ذلك يا مزدا، وسيكون مصدر فرحة لك'.

'لنكن أولئك الساعين إلى لقاء مزدا، ولنقدم له الحمد بتواضع!'.

'يا 'أهورا مزدا'! أرفع إليك أكف الضراعة، يا خفي، يا كريم! أسألك بغبطة أن تهبني أعمالا صالحة، وأفكارا صائبة، تمكنني من الاتصال بروح الكون'.

ونورد هنا بعض الصلوات اليومية، بعضها بنصها الكامل، والآخر باختصار:

المصادقة

'ليكن النصر حليف الديانة المقدسة، الأصدق. لديانة المعرفة الإلهية التي صنعها مزدا. الغلبة للإيمان الصادق المزدي الزرادشتي. إنها العقيدة الصالحة، المستقيمة الطاهرة التي أرسلها 'أهورا مزدا' إلى هذا العالم، ونقلها زرادشت النبي'.

إن العقيدة الزرادشتية قد كفلها 'أهورا مزدا' لزرادشت بسبب استقامته. والاستقامة طيبة، وهي أفضل الأشياء'.

صلاة الصباح

' سلاما أيها الفجر ، لك السلام .

' سلاما حتى نضحي له بكل ما هو عظيم

' هو ' أهورا مزدا ' .

' السيد المادي والسيد الروحي

' لكي يدحر الشرير انجرا مينيو

' ويهدم عفريت الغضب – ذا السلاح القاتل

' ويدحر عفاريت مزاندران (Mazandaran)

' ويمحق كل أرواح الشر

' نحن هنا ندعو بتوقير ، كل المؤمنين

' رجالا ونساء ، في العالم كله

' الحاضرين ، والسابقين ، ومن سيأتون ' .

صلاة المساء

' نحن ، هنا ندعو لتوقير الملك سراوشا

القديس، الجليل، الحامي الأرضي، و قديس السيد المنتصر

ندعوه ذلك الحارس أن يحمي مخلوقات أهورا

وهو الحارس أن يحفظ مخلوقات مزدا

ندعوه، هو الذي يحارب عفاريت 'مذندران'، بلا كلال، ليل نهار،

ندعوه هو الحافظ، و المدبر لهذا العالم'

أيتها القداسة ! متى نراك

وأنت ، يا روح القدس ، متى نكتشف

الطاعة ، والطريق المؤدية إلى السيد

مزدا – صانع الخير الأسمى ؟

بهذه المنثرا (Manthra) نعلم

الهراطقة الأدنياء ، الإيمان بسيدنا

أقبل مع روح الخير وامنحنا

حضور آشا ، أنت أيها الموجود الأبدي

امنحنا العون

لكي نقدر على سحق شر الشرور ' .

نحمـــدك

' نحمد ذكاء أهورا مزدا ، لكي ندرك الكلام المقدس

نحمد حكمة أهورا مزدا ، لكي ندرس الكلام المقدس

نحمد لغة أهورا مزدا ، لكي ننشر الكلام المقدس

ونعبد كل نهار وليل، الجليل أوشيدارينا (Ushidarena)

الطريق المؤدية إلى السيد الرب

حارس الفكر الذي يحبه جاوكرينا (Gaokerena) خليقة مزدا، نحن نحمده ، أكثر من الجميع ، وأكثر من كل المؤمنين ' .

الرجل المثالي والمرأة المثالية

' نحمد المرأة الصالحة، المكتملة بالأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، الرفيعة، التي تشرف زوجها، القديسة العامرة بالصلاح، كأنها سبنتا أرمايتي، ونحمد يزاتاتك الصالحات، يا أهورا مزدا! نحمد الرجل الصالح، المكتمل بالأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة، المتمسك بتقواه، 'السيد القدوس في صلاته' .

العمل عبادة [1]

'كونوا جاهزين أيها الزرادشتية المزدية. هيئوا أقدامكم وأيديكم وأفكاركم، لكي تنجزوا الأعمال الصالحة، طبقا للقانون وفي الوقت المناسب، لكي تتجنبوا الأعمال الشريرة المخالفة للقانون التي تحدث في الوقت غير المناسب، ولتكن أقدامنا مستعدة للجهد المنتج، لنقضي حاجة المعوزين' .

[1] يقول المثل الفرنسي ' كل من يعمل يصلي ' (المترجم الفرنسي)

الجزء الثاني

الشعائر

الفصل الأول

المراسم الاجتماعية - الدينية

مراسم الولادة

يعلن أهورا مزدا في الفنديداد أنه يفضل الرجل الذي لديه أطفال على من لا ولد له. فليس على سطح البسيطة أزكى من مكان يقيم فيه رب عائلة مع أولاده.

وهذا تعبير عن الترحيب بقدوم الوليد إلى البيت الزرادشتي. وليس في الأفستا إشارة إلى طقوس الحمل. ولكن في الكتب البهلوية والفارسية الأقل قدما، إشارات إلى بعض التعاليم.

مثال ذلك: أن ساياست السياست (Sayest la Sayast) يأمر بإبقاء النار على أشد ما تكون من التوقد في البيت خلال التسعة الأشهر. وتقول الفنديداد: إن مطرح الولادة يجب أن يكون على غاية النظافة، جافا، محظورا على الآخرين. وبعد الوضع تجتنب المرأة ملامسة النار، والماء والبارسمان (آنية طقوسية) الموجودة في البيت. ويفرض هذا الكتاب مدة اثني عشر يوما من العزلة إذا ولد الجنين ميتا.

مراسم الزواج

بعد طول معاشرة أتباع زرادشت المعاصرين للهندوس في الهند

اقتبسوا العديد من العادات والشعائر الهندية المتعلقة بالزواج. ولكن الجانب الديني البحت من الشعائر كما يمارسه الكهنة، يتطابق، قليلا أو كثيرا، مع الموروث الإيراني، ويقام خاصة بلسان بازند الحديث. وإليكم مضمون هذه الشعيرة:

1- مباركة تمهيدية.

2- أسئلة تطرح على الزوجين والشهود، الواحد تلو الآخر.

3- خطبة يلقيها الكاهنان المكلفان بالشعائر.

ويبارك الكاهن الأكبر سنا الزوجين بهذه الكلمات:

نسأل الخالق، السيد الكلي العلم أن يهبك نسلا من الأولاد والأحفاد، وأن يرزقكم من وافر رزقه، ويمنحكم الحب الدائم، والقوى البدنية، وعمرا مديدا يربو على المئة والخمسين'.

ويتلقى الكاهن أثناء المباركة ثلاث موافقات من الشهود، ومن الزوج والزوجة. وفي بادئ الأمر يطرح السؤال على شاهد عائلة الزوج:

'في حضرة هذا المجلس المجتمع في مدينة كذا من يوم كذا ومن شهر كذا، ومن سنة كذا من تقويم الإمبراطور 'يزدكرد'، من السلالة الساسانية في إيران السعيد، قل إن كنت موافقا على طلب هذه الفتاة (ويذكر اسمها) للزواج بهذا الشاب، طبقا للشعائر والقواعد المزدية، وأن تدفع لها ألفي دينار فضة بيضاء، وديناريين من ذهب خالص، من عملة نيسابور'.

فيجيب الشاهد: 'موافق'.

أما السؤال الثاني فيتوجه به إلى الشاهد الثاني:

'أنت وعائلتك، بفكر الشهامة، والأفكار والأقوال والأفعال المخلصة، لكي تزدهر الاستقامة، هل توافق على إعطاء هذه الفتاة (ويذكر اسمها) زوجة إلى الأبد؟

ويجيب المسؤول: 'لقد اتفقنا على ذلك'.

ثم يسأل الكاهن الزوجين: 'هل أنتما موافقان على عقد هذا الزواج، والحفاظ عليه دوما بهذه الحالة حتى آخر يوم من حياتكما، بفكر الشهامة؟'.

فيجيب أحدهما تلو الآخر: 'لقد وافقنا عليه'.

ويتبع ذلك تلاوة خطبة من Paevandnama أو Ashirwad ، عامرة بالمباركات، والنواهي والصلوات، يلقيها الكاهنان وهما ينثران على العروسين حبوب الأرز، شعار السعادة والوفرة.

ليست 'الأشيرواد' مجرد خطبة مباركة بل هي موعظة موجزة تختتم بصلاة قصيرة. كما أن الجزء الإرشادي منها، لا يقتصر على توصية الزوجين بالتحلي بالخصال الحميدة فحسب، وأن يفعلا الخير ويجتنبا الشر، بل هو كذلك خطاب موجه إلى الحاضرين جميعا، وإلى الحكمة الإنسانية. ويراد بذلك توفير الوسيلة إلى النجاح في الحياة. وإليكم بعض شذرات منها، على سبيل المثال:

'لا تدخلن في خصومة مع الحقود، ولا تكونن شريك البخيل أبدا، ولا تجالس النمام، ولا تعاشر من ساءت سمعته. ولا تصدق الذين ينطقون بأشياء لم يتحققوا منها. ولا تدخل في خصام مع الأشرار. تكلم في المجلس بعد طول أناة وتفكير. تكلم باعتدال في حضرة الملوك'.

يقول الكاهن القائم بالطقوس:

"أيها الصالحون! لتحل عليكم بركة الأفكار، والأقوال، والأفعال الطيبة. ولتعمر نفوسكم التقوى التي هي خير من كل الأموال. ولتبعد عنكم حياة الإثم التي هي أسوأ الشرور. الاستقامة خير هبة، وأعظم سعادة. ما أسعد الإنسان العادل، لأنه يحب العدالة الفضلى".

وفي المقطع الختامي من الأشيرواد يتلقى الزوجان المباركة التالية:

"فليحل عليكما النور والمجد والعافية، وصحة البدن، والنجاح المادي، والغنى الذي يؤدي إلى السعادة، ولترزقوا أطفالا نجباء منذ ولادتهم، ولتمنحوا العمر المديد والنعيم السعيد الذي وعد به المتقون. استجب يارب!".

مراسم الجنازة

تنقسم المراسم المتبعة حين الوفاة إلى قسمين:

1. مراسم متعلقة بالجثمان.
2. مراسم متعلقة بالروح.

1- الإجراءات المتعلقة بجثمان المتوفى

إن أحد المبادىء الأساسية في الديانة الزرادشتية، حفظ النار، والهواء، والماء، والتراب أن يمسها دنس أو نجاسة. والمطلوب أن يوضع جثمان المتوفى بعد صعود الروح، بما يقتضيه من التوقير، ولكن بحيث لا يلوث أحد العناصر الأربعة، أو يؤذي الأحياء. ولهذا، فإن المؤمنين لا يحرقون موتاهم، ولا يدفنونهم، ولا يغرقونهم أيضا. بل يجعلون الجثة على قمة ربوة عالية، عرضة لحر الشمس، حتى تنهشها الجوارح. كما

أن مراسيم الجنازة مستمدة من أفكار الزرادشتيين القدماء حول النظافة، والحجر، والطهارة. وهذه الاحتياطات قد سبقت الإجراءات الوقائية التي تتخذ في العصر الحديث تجنبا لانتشار العدوى وهي:

1- منع أي ملامسة من الأحياء لبؤرة العدوى، حقيقية كانت أو مفترضة.

2- القضاء على هذه البؤرة ذاتها.

تعتبر الإجراءات الوقائية أسباب الوفاة ناقلة للعدوى. ويطلب من المؤمنين أن تكون ملامستهم للجثة على أقل ما تكون.

بعد الوفاة يسارعون إلى تغسيل الميت، ويكفنونه بثياب نظيفة، ثم يتلون عليه الصلاة وهم يلفون حوله الخيط المقدس (Kusti)، ويضعونه على الأرض في زاوية أمامية من الحجرة، لكي ترش عليه كمية من الرمل، أو مدرات من التراب الجاف، القاسي، تغطيه. وتشابك يدا المتوفى على صدره. وبعد أن يسجى على الأرض الجافة، يتقدم أحد اثنين من الحمالين المحترفين فيرسم حوله ثلاث دوائر (Kashas) بقطعة حديد مدببة الرأس، محددا بذلك مطرح الجثمان على الأرض، ليمنع الأحياء من الاقتراب منه، والتلوث به.

ثم يؤتى بكلب له فوق عينيه بقعتان تشبهان العينين، فينظر إلى الجثة. فهم يعتقدون أن الكلاب التي لها مثل هذه العلامة الخاصة، أو الكلاب بأربع عيون (شاترو شاسما Chathru chasma) تملك القدرة على معرفة وجود الحياة في الجثة أو عدمها. فإذا كانت الروح قد فارقتها فإن الكلب ينظر إليها نظرة ثاقبة، أما في الحالة المعاكسة، فإنه يحول نظره عنها.

ويحملون إلى حجرة الميت وعاء فيه نار مشتعلة، ويذكونها بخشب الصندل والبخور. ويجلس أمام النار كاهن يداوم على تلاوة نصوص من الأفستا، حتى تحمل الجثة إلى البرج، وهذا الكاهن نفسه يتعهد النار. وقد يسير موكب الجنازة إلى البرج في أي ساعة من ساعات النهار، ولكنه لا يكون ليلا على الإطلاق، لأنه ينبغي تعريض الجثة إلى الشمس.

قبل حوالي الساعة من موكب الجنازة، يدخل المنزل اثنان من الحمالين(Nassasalars) ، أو أربعة إذا كان الجسد ثقيلا، وهم يرتدون الملابس البيضاء، فإن كانت الوفاة إثر إصابة إنتانية تغطى كل أعضاء الجسم ما عدا الوجه، لتحجب هذا الإنتان. ويكون مع الحمالين نعش (Gaham) من الحديد وليس سواه، لنقل الجثمان. ويمنع استعمال الخشب قطعا في مراسم الجنازة، لأنه ناقل لجراثيم المرض والإنتان.

يجعل الحمالون النعش جانب الجثة، ثم يتلون همسا العبارة الآتية، ولا ينطقون بعدها بشيء حتى يوضع الجثمان في برج الصمت. وإليكم العبارة:

'إننا نفعل ذلك طبقا لأوامر 'أهورا مزدا' 'أميشا — سبينتا'، وأوامر القديس سراوشا، وأوامر أدارباد، ماراسبند، وأوامر دستور العمر'.

ثم يجلسون ساكتين بجانب الجثة. فإذا طرأ عارض اضطرهم إلى الكلام، فإنهم يهمسون همسا خافتا لا يحركون به شفاههم.

ويتبع ذلك المراسم المسماة 'جيه — سارنا' (Geh - Sarna)، وهي تلاوة من الجاتا مصوغة على شكل تحذير إلى الأحياء، يوصيهم بتحمل الفقد الذي أصابهم. بعدئذ، يؤتى بالكلب لينظر إلى الجثة مرة

ثانية. ويلقي أهل الفقيد وأصحابه المجتمعون هناك، النظرة الأخيرة عليه. وما إن تنتهي مراسم الجيه – سارنا حتى يمر أهل الفقيد أمام الجثمان واحدا بعد الآخر، ويتأملوه مرة أخرى وهم ينحنون أمامه باحترام.

ثم يغطي الحمالون وجه المتوفى بقطعة قماش، ويضعون الجثة في النعش بوساطة سير من القماش. وينقلون النعش إلى الخارج، ويسلمونه إلى الخانديا (Khandia)، أي: فريق آخر من الحمالين المكلفين بنقل النعش على أكتافهم حتى البرج.

حينما يصل الموكب إلى غايته، يجعل النعش على الأرض، خارج البرج. ويغطي الحمالون وجوههم. ويقدم الحاضرون واجب الاحترام للمتوفى بأن يلقوا عليه نظرة أخيرة من مسافة لا تنقص عن ثلاث خطوات. ثم يعرضونه مرة أخرى على الكلب 'ذي العيون الأربع'، ثم يفتحون باب البرج. أما الحمالون الذين أخرجوا الجثمان من المنزل ورافقوه إلى مثواه الأخير، فيستعيدون النعش من هؤلاء الحمالين، ويضعون المتوفى في المكان المعين له، وينزعون عنه أكفانه ويتركونه على أرضية البرج. فقد جاء إلى الدنيا عاريا ويغادرها كما جاء.

حينما تعرض الجثة بهذه الطريقة تلاحظها عيون الطيور الجوارح. وكلما سارعت إلى انتهاشها كان خطر تحللها أقل، وزاد اطمئنان الأحياء من الخطر. أما الأكفان التي نزعت عن الجثة فترمى في حفرة خارج البرج لكي تهترئ بفعل الحرارة، والريح، والمطر. وفي بومباي يصبون عليها (حمض الكبريت) حتى تتلاشى.

ينهي الحمالون مهمتهم بإغلاق باب البرج. هنالك يصفق أحد الأعوان بيديه، وتلك إشارة معلومة إلى الذين مشوا وراء الجنازة، وظلوا جالسين على مبعدة من البرج. فينهضون جميعا، ويتلون خاتمة الصلاة

سراوش باف (Sraosh Baf) التي كانوا قد تلوا جزءها الأول قبل سيرهم وراء الجنازة. وتتبعها كذلك صلاة قصيرة تحتوي هذه الكلمات:

'إنا نتوب عن كل ذنب. ولكم يا أرواح الموتى احترامنا. ونتذكر هنا أرواح الموتى الذين هم أرواح مقدسة؟'.

برج الصمت

'أيها الخالق المقدس للعالم المادي! أين ينبغي لنا نقل أجساد الموتى؟

يا 'أهورا مزدا'! أين ينبغي لنا أن نضعها؟' هكذا يسأل زرادشت في الفنديداد. فيجيب 'أهورا مزدا': 'في أعلى مكان ياسبيتاما زرادشت!'.

في العصر القديم كانوا يجعلون الأجساد في ذرى الجبال العالية، دون أن يحيطوها بسياج. وحين لا تترك منها الكلاب والنسور وسواها من الجوارح شيئا غير العظام، ويبقى هذا الرفات رميما، خلال سنة من الزمان، يأخذونها ويحفظونها في 'الأستودانات' (Astodans)، وهي فجوات من الحجر، ذكرها المؤلفون القدماء. وكانت هذه الأستودانات أحواضا من الحجر، أو أجرانا، أو سواها من المواد التي لا تتلف، والمفترض فيها أن تمنع انتقال النتانة. ويكون اختيارها بحسب الإمكانيات المتوفرة لدى عائلة المتوفى.

وأما أبراج الصمت الحالية فقد أعدت لكي يتحلل اللحم وتحفظ العظام. وهذه الطريقة الحديثة – كما نرى – أفضل من سابقتها. فلا

تلوث فضاء واسعا، ولا توجد تفرقة بين الأغنياء والفقراء. فكل الرفات يوضع في فجوة واحدة، وتتحقق بذلك العدالة بعد الموت.

برج الصمت في بومباي

لقد تبينت في بومباي فائدة هذه العملية الحديثة. فأبراج الصمت فيها أبنية على شكل صرح ضخم مدور. من الحجارة الصماء. يرتفع عن الأرض بعدة درجات تؤدي إلى باب من الحديد ينفتح على مصطبة دائرية، في مركزها فجوة دائرية أيضا. ومحيط المصطبة داخل البرج، حوالي 3 أقدام، مرصوفة ببلاطات ضخمة مثبتة بالإسمنت. تتوزع على ثلاثة صفوف من الخانات المفتوحة غير العميقة. تقابل الثلاثي من: الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة. والصف الأول مخصص لرفات الرجال، والثاني لرفات النساء، والثالث لرفات الأطفال.

وقد أنشئت أرصفة لا تعيق حركة الحمالين. وفي البرج هوة عميقة مركزية تدعى بندهار (Bandhar)، مخصصة لاستقبال الرمم. ومحيطها حوالي 150 قدم. وقد رصفت جوانبها وقاعدتها ببلاطات حجرية. وتكفي النسور ساعة أو ساعتان لكي تعترق الجثة تماما. وحينما لا يتبقى منها سوى هيكلها العظمي الذي تجففه العوامل الطبيعية، وخاصة الحرارة اللاهبة للشمس المدارية، ترمى العظام في تلك الهوة حيث تصبح رميما شيئا فشيئا، ولا يتبقى منها سوى عنصري الكلس والفوسفور.

ويلحق بالبرج، وعلى مقربة من هذا الصرح الرئيس، صرح أصغر منه، يدعى 'ساجري' (Sagri) تتوقد فيه النار ليل نهار، أما في المدن (mafussil) التي لا يمكن القيام فيها بهذه العملية، فيحتفظون بالنور مضاء على الدوام.

2- المراسم المتعلقة بأرواح المتوفين

'يا أهورا مزدا، يا روح الخير، أيها الخالق المقدس للعالم المادي! حينما يموت الرجل التقي، فأين تقيم روحه تلك الليلة؟ وفي الليلة الثانية؟ وفي الليلة الثالثة؟'. هذا ما يسأل زرادشت في 'الهادوخ نسك' (Hadokh Nask).

ويجيب أهورا مزدا: 'إنها تبقى حيث جسدها، تنشد الأوستافايتي جاثا (Ustavaiti Gatha)، راجية البركة: 'مبارك ذاك الذي أفاض عليه أهورا مزدا بركته بكل رضا'.

أما روح الشرير فإنها تبقى في مقام هذا العالم ثلاث ليال. وتتذكر هذه الروح كل آثام حياتها الماضية، وتدرك الكارثة التي هي مقبلة عليها، فتنوح: 'يا أهورا مزدا ! إلى أي بلاد سأرجع؟ وأين أمضي؟'.

إن روح المتوفى التي تبقى كذلك في مقام هذا العالم هي تحت الحماية الخاصة لسراوشا الذي كلفه اهورا مزدا بالحفاظ على الأرواح البشرية خلال الحياة وبعد الممات، فالشعائر الدينية المقامة على روح المتوفى خلال الأيام الثلاثة الأولى، تتوجه إذن إلى سراوشا، أو باستخدام العبارات التي تطلب منه الغفران 'خاشنومان' (Khash numan). وإليكم ما فرضه شاياست الشاياست:

'خلال هذه الأيام الثلاثة ينبغي استكمال شعائر 'يازسن سراوشا' (Yazisn de sraosha). لأن سراوشا يملك سلطة إنقاذ روحه من أيدي الديفا، خلال الأيام الثلاثة. فإذا لم يتوقف المرء عن إقامة الشعائر لكل مرحلة (gah) من مراحل الأيام الثلاثة، فكما لو أنه أقام الشعائر كلها معاً'.

وفي بداية كل مرحلة، يتلو كاهن أو كاهنان بصحبة أهل الفقيد، 'الستراوش باف' مع العبارة الملائمة لكل مرحلة. أو يتلون صلاة التوبة مع صلاة الغفران من سراوشا. وفي الليلة ذاتها، يعمد أثنان من الكهنة إلى إقامة شعائر الأفرينجان (Afringan)، تمجيدا لستراوشا. فيجلسان على بساط متقابلين، وبينهما المذبح تتوقد فيه النار، ووعاء معدني. ويدعى باسم زاوتار (Zaotar) أي: الكاهن المتفرغ، أكبر الكهنة سنا، الذي يكون الوعاء أمامه. ويدعى صاحبه المقابل له باسم (Ataveraks) أتافيراكس، أي: متعهد النار. ويحتوي الوعاء المعدني نفسه على مزهرية مملوءة بالماء الصافي ويضع أزهار.

ويبدأ الزاوتار شعائر الأفرينغان، ويسأل في بدايتها المدونة بلسان البازند، حماية سراوشا لروح المتوفى، مع ذكر اسم المتوفى في الصلاة. ثم يتلو الكاهنان معا، المقطع السابع من السراوشا ياشت، الذي يصدح بمديح اليزاتا، معترفا بما يقدمه من عون.

وبالإضافة إلى هذه الصلوات والشعائر، خلال ثلاثة أيام وثلاث ليال في مسكن المتوفى، تتلى في معبد نار غير بعيدة عنه، على ثلاث دفعات متوالية، صباحا ومساء، تتلى الفنديداد مع خاشنومان سراوشا.

شعيرة الأوتامنا (Uthamna)

بعد الظهر من اليوم الثالث، تقام الشعيرة المسماة: 'أوتامنا'، أمام جمع من أصحاب المتوفى وأهله وبعض الكهنة. وتتلى الصلوات الخاصة المفروضة لهذا الوقت من النهار، أي: ساروش هادوخت، والباتيت، مع ذكر اسم الفقيد والدعاء له بأن يحميه سراوشا. وهي مناسبة للقيام بأعمال الإحسان. وفعلا، يعلن أهل المتوفى وأصحابه في نهاية هذه

الشعيرة، عن تبرعهم بالمال للصندوق الموجه إلى معونة البؤساء، وعلى نية (Niyat) المرحوم.

عبور الروح إلى العالم الآخر

من المتفق عليه أنه حين بزوغ الفجر التالي على الليلة الثالثة، تصل الروح إلى العالم الآخر، عابرة الصراط المسمى 'شينفات'. وحارس الصراط هو اليزاتا ميثرا: 'حين تنقضي الليلة الثالثة ويطلع النهار، عند أول نور صباح يطلع ميثرا المحبوب من أعالي الجنان' (فنديداد، 19، 28). ويعرف هذا اليزاتا في الكتب الأخيرة باسم 'ميهير دافار'، أي ميهير القاضي، يعاونه راشنو، يزاتا العدالة، وأستاد (Astad) يزاتا الحق. فينظرون في أعمال الإنسان التي قدمها أثناء حياته. فإذا رجحت الحسنات على السيئات، ولو بشيء متناه في الصغر، سمح للروح بعبور الصراط، ودخول الفردوس. وإذا تعادلت الحسنات والسيئات تماما، ذهبت الروح إلى مكان يدعى 'هامستاجان' (Hamestagan). وإذا كانت السيئات، مهما تناهت في الصغر، أعظم من الحسنات رميت الروح في قعر الجحيم'.

إن ذلك الفجر من اليوم الرابع، التالي على الوفاة، يعتبر تاريخا بالغ الأهمية، ومتفردا لإقامة الشعائر الدينية لفائدة روح المتوفى. والشعائر التي أقيمت بعد الظهر، تعاد في اليوم التالي، وتتلى فيه صلوات الأفرينجان وباج (Bag)، بالإضافة إلى صلوات أخرى. وحينما يبدأ يوم الحساب كما ذكرنا، يتوجه أهل المتوفى وأصحابه جميعا إلى الإله الرحيم بالصلوات على روحه.

إن إقامة شعار باج تتوجه في المرتبة الأولى إلى الاثنين من اليزاتا: راشنو وأستاد، المجتمعين معا بهذه المناسبة. ثم في المرتبة الثانية لتمجيد راما خفاسترا (Rama Khvastra)، اليزاتا القيم على المناخ النادر أو الأثير. ثم تتوجه في المرتبة الثالثة إلى تمجيد الأردا فرافاش وهي الأرواح المقدسة لكل الأرواح غير المتجسدة التي سينضم المتوفى إليها.

وفي المرتبة الرابعة والأخيرة، تتوجه إلى تمجيد سراوشا الذي يقود الروح في رحلتها نحو العالم الآخر. وبعد تلاوة الباج من أردا فرافاش، يعمد الكاهن إلى تطهير عدد من الملابس البيضاء، والخبز المحلى، وغيرها من الهبات. ويطلق على هذه الملابس الجديدة اسم سياف (Syav). وهي الفاسترا (Vastra) التي نقرأ عنها في الفرافاردان ياست، ما يلي:

"من ذا الذي يمجدنا وملابسه بيده؟" (فرافاشي، ياست، 13، 50).

ويتصدق الكاهن، عموما، بهذه الملابس على الفقراء. أما المناسبات الرئيسية الأخرى التي ينبغي فيها إقامة شعائر الأفرينجان – باج، طبقا لأوامر الكتابات، تمجيدا للميت، فهي الشهاروم، والداهوم، والسيروز، والسالوز، أي: ذكرى اليوم الرابع، والعاشر، والثلاثين.

لا يقطع الموت الروابط بين المتوفى وأفراد عائلته الذين يعيشون من بعده. وترى الديانة الزرادشتية أن روح قدس المتوفى تثابر على الاهتمام بالأحياء. فإذا ما مجد أهله ذكراه، وتذكروه بكل خير، وحاولوا إسعاده بأفكارهم وأقوالهم الصالحة، فإن الروح غير المتجسدة تهتم بإدخال البهجة على حياتهم، ومد يد المساعدة التي تستمتع بها أرواح الموتى. وحين تعود الأيام المخصصة لتذكار المتوفين، فإن أهلهم لا

يدعون لهم ويصلون على أرواحهم لكي تبقى في مستقرها فحسب، بل يوزعون كذلك الطعام والثياب على الفقراء، وعلى ذويهم، فإن كانوا يملكون المال وفروا بعضا منه للقيام بأعمال أخرى من الإحسان.

الفصل الثاني

طقوس الطهارة

إن الطهارة أفضل شيء منذ بداية حياتنا: (ياوزداو ماشيفات آيبي زاهيتم فاهيشتا) Yaozdao mashyvat aipi Zahythem vahishta. كثيرا ما تتردد هذه العبارة في الكتابات المقدسة، وتجعل حاضرا في ذهن الزرادشتي الطابع السامي للطهارة. فالطهارة تعتبر أساسية من حيث فائدتها الصحية، ولكونها إحدى متطلبات الأخلاق. فالفكر يستمد من طهارة الجسد شيئا من العون، وتمارس النظافة تأثيرها على مزاجنا الأخلاقي. فطهارة الجسد هي بلا ريب، شعار الطهارة الفكرية.

إن الرجال والنساء الذين يلامسون الدنس مدعوون إلى التطهر، لا لفائدتهم فحسب، بل لفائدة الآخرين. فلا يكفي أن يحتفظوا بأجسادهم على حالة من النقاء، بل يلزمهم تطهير كل الأشياء، وآنية المنزل التي قد يصيبها الدنس. حتى إن مجرد الظن بأنهم لامسوا أشياء دنسة أو أصابهم شيء منها، يستوجب عليهم، زيادة في الحيطة، التطهر بشتى أنواع الغسل. وقد يرافقه في بعض الأحوال الحجر، والقيام بالشعائر. ونميز أربعة أصناف من شعائر الطهارة:

1- البادياب (Padyab).

2- الناهن (Nahn).

3- البارشنوم (Bareshnum).

4- ريمان سي – شوي (Riman Si - shoe) .

البادياب

الباديـاب هـو أبسـط أشـكال الطـهارة التـي تخضـع لـها أعضـاء الجسـم المكشـوفة. والمعنـى الحـرفي لهذه الكلمة هـو: صـب الماء (ab) على (Paiti) الأعضاء المكشوفة من الجسم. ومن يقوم بالبادياب يقول أولا: "أفعل ذلك لإرضاء أهورا مزدا" (Khshnaothra Aburahe Mazdao). ثم إنه يتلو العبارة المختصرة لآشـم فوهـو، ويغسـل وجهـه والأعضـاء الأخرى المكشوفة من جسـمه، أي: يديـه وقدميـه. وبعـد تنشـيفها يعمـد إلى الكوستى (Kusti)، وهـي عقد الخيط المقدس عدة مرات وهو يتلو بعض الأدعية.

ينبغي للبارثي أن يؤدي البادياب في أربع أحوال:

1- صباحا، حين ينهض من نومه.

2- بعد قضاء حاجته الطبيعية.

3- قبل تناوله الطعام.

4- قبل أن يتلو صلواته.

الناهن

الناهن أو الحمام هـو شكل أرقـى مـن الطـهارة. ويقـام في حـالات خاصة، بمساعدة أحد الكهنة. ويتألف من أربعة أركان:

(1) الباديـاب هوسـتي، المعتـاد. (2) التدليك بورقة رمان، وشـرب الكاميز (Gamez) المقدس، أو بول الثور، كنوع من المناولة المقدسة.

(3) تلاوة الباتيت، أو صلاة التوبة. (4) الحمام الختامي.

بعد قضاء البادياب يتلو المرء الباج، ويمكن ترجمتها بكلمة 'الشكر' أو 'الحمد'، لأن الباج ينطق قبل الطعام. ثم يجب مضغ ورقة أو ورقتين من أوراق الرمان، يتناولها من الكاهن. ويتبع ذلك الكوستي، وتلاوة الباتيت. وبعدها فقط، يبدأ الناهن بالمعنى الدقيق. فيعتزل المرء في الحمام وهو يتلو:

'أفعل ذلك لإرضاء أهورا مزدا'. وينزع ثيابه ويقرأ جزءا من سراوش باج، وهو يضع يده اليمنى على رأسه، لأنه لا تجوز الصلاة وهو حاسر الرأس. ومن الخارج، يمد له الكاهن بوساطة ملعقة طويلة، مثبتة على طرف عصا ذات تسع عقد، عددا من الأشياء المفترض أن فيها ميزات تطهيرية. فيقدم له بهذه الطريقة البول المقدس ثلاث مرات، فيدلك به جسمه ثلاث مرات. ثم يعطيه الكاهن، ثلاث مرات أيضا، الماء المقدس فيتلقى منه الجسم ثلاث رشات. وعموما، تتضح بضع قطرات من هذا الماء المقدس على الثياب البديلة التي يلبسها المرء بعد الحمام. وها هنا يبدأ الاستحمام، ويكون قد أضيفت إلى الماء المستخدم فيه، بضع قطرات من تلك المياه المقدسة. وبعد انتهاء الحمام يرتدي المرء الثياب المقدسة، ثم يختم صلاة سراوش باج ويعمد إلى الكوستي، وبذلك تستكمل طهارة الناهن.

والمعتاد أن يعمد الزرادشتية المتزمتون إلى الناهن بمناسبة الناوزوت (Naozot)، أي الشعيرة التي يتسلم فيها الطفل القميص والخيط المقدس، وكذلك بمناسبة الزواج. وتعمد النساء إلى الناهن بعد الدورة التالية على ولادتهن. ويقوم به بعض الأتقياء أثناء 'الفارفارديجان' (Farvardegan) أي: الأيام المقدسة التي تقع في نهاية السنة.

البــارشــــنوم

إنـه أسـمى شـكل مـن أشـكال الطـهارة. وغايتـه في الأصـل، تطـهير أولئك الذيـن لامسـوا أسـوأ النجاسـات المعروفـة بخطرهــا، أو المتسـببة بالعدوى. إن أي شخص، في إيران القديم، يصبح غير طاهر إذا لامس ميتا أو لسبب سواه من النجاسة، فيجب عليـه القيـام بالبارشنوم. وإذا كانت الوفاة إثر مرض معد فكل مـن لامس الجثة يغدو نـاقلا محتمـلا للعـدوى، وينبغـي لـه الخضـوع للطـهارة والحجـر تسـعة أيـام. وكنـوع مـن الاحتياط يطلب من الأحياء الابتعاد عن الجثة مدة معينـة، سـواء كـانت الوفاة نتيجة عدوى أم لا. أما أولئك الذين يضطـرون إلى مـلامسة الميت لسبب من الأسباب، فينبغـي لـهم الخضـوع للمراقبـة الطويلـة، ولطـهارة البارشنوم وحجره.

وتختلف هذه الفريضة عن سابقتيها لأسباب كثيرة. فعلى حين أن البادياب لا يتطلب سوى دقيقـة أو دقيقتـين. وتتطلـب النــاهن حوالـي نصف السـاعة، فـإن البارشـنوم الـذي يرمـي في الأصـل إلـى غـايتين: الطهارة والحجر، يدوم تسعة أيـام. ولا يستدعي البادياب تدخل أحد رجال الدين، بينما يتطلب البارشنوم وجود اثـنين منـهم. كمـا أنـه يمكن إقامة شعائر البادياب في المسكن أو المعبد، وأما البارشنوم فلا يقام إلا في الهواء الطلق، في مكان مخصص له، حيث لا وجود للنباتـات أو المـاء أو النار التي قد تتلوث إذا لمسها الشخص الخاضع للطهارة.

في العصر الحديث، لا يقوم بالبارشنوم سوى الكهنـة أو المؤهلـين له.

وهو إجباري لكل من يريد الدخول في سلك الكهنوت، أو حتى لكل كاهن ممارس يريد أن يؤدي داخل معبد النار، إحدى الوظائف السامية التي تقررها الشعائر.

الـ 'سي – شوي'

في الأزمنة الأخيرة، أصبح الناس الذين تلوثوا بملامسة الجثث يخضعون إلى طهارة بسيطة نسبيا. وتعرف باسم 'سي – شوي' أي الوضوء ثلاثين مرة.

ويتطلب القيام بها وجود مساعدين، أحدهما قد يكون كاهنا. وأما لوازم الطهارة وطريقة الاستحمام فهي مطابقة لطقوس الناهن تقريبا.

الفصل الثالث

شعائر التلقين (المسارة)

لدينا شعيرتان من شعائر التلقين:

1- الناوزوت، وهي تلقين الطفل للدخول في الجماعة الزرادشتية.

2- والنافار (Navar) والمرتب (Murattab)، وهما درجتان من درجات التلقين للدخول في سلك الكهنوت.

الناوزوت

يطلق اسم الناوزوت على الشعيرة التي يتسلم الطفل خلالها القميص المقدس المسمى'سودره' (Sudreh) والخيط المقدس، أي: الكوستي. والزرادشتي حر في ارتداء ما شاء من الثياب، ولكنه ملزم، بعد التلقين، بارتداء هذين الرمزين من رموز ديانته، ماعدا وقت الاستحمام، ومعنى كلمة ناوزوت: 'المكلف الجديد'.

وقد سميت الشعيرة بهذا الاسم لأن الطفل الزرادشتي مضطر بعد تأديتها فقط، إلى القيام بالصلوات، واتباع الأعراف والطقوس الدينية.

وتقام الناوزوت عادة، خلال السنة السابعة من عمر الطفل. وفي اليوم المحدد لهذا الغرض، وقبل دقائق من إقامة الشعيرة يخضع

الطفل إلى طهارة الناهن، ثم يوضع في قاعة يجتمع فيها الأصحاب والأهل مع الكهنة. ويتربع الكاهن الممارس فوق بساط على الأرض، ويجلس الطفل قبالته ملتفا برداء أبيض، ويوضع على البساط:

1- وعاء يحتوي ملابس الطفل الجديدة، بما فيها السودرة والكوستي.

2- مزهرية مملوءة بالأرز، وتهدى إلى كاهن الأسرة بعد انقضاء الشعيرة.

3- مزهرية مملوءة بالزهور توزع في الوقت نفسه، على الكهنة، والأهل والأصحاب الحاضرين.

4- قنديل توقد فيه الزبدة الصافية، عموما.

5- مجمرة يوقد فيها خشب الصندل والبخور.

6- وعاء آخر يحوي مزيجا من الأرز، وحبات الرمان، والزبيب، واللوز وقطع من جوز الهند، وتنثر كلها على رأس الطفل حينما يتلقى المباركة. ويوجد في الوعاء الأول الذي يحوي الملابس، أوراق تنبول[1]، وقطع من السكر، وبعض حبات من الأرز، وحبة جوز الهند، وإكليل زهور، وكوب من المعدن مملوء بالكمكم (نوع من المسحوق الأحمر)، وعدة قطع من النقود. وهذه الأشياء ليست ضرورية لإقامة الشعيرة ذاتها، ولكنهم يتفاءلون بها في الهند. ولذلك فإن الكاهن يهديها إلى الطفل. وفي نهاية الشعيرة تقدم النقود إلى كاهن الأسرة، وهي جزء من أتعابه.

---

[1] التنبول :(Betel) نبات من الفصيلة الفلفلية.

حينما يجتمع كل الكهنة في المجلس، فإن الكاهن الممارس يضع في يدي الطفل قميصا جديدا: ثم يتلون جميعا الباتيت، صلاة الاستغفار، أو يتلون الهورمازد ياشت. ويشارك الطفل في تلاوة الأدعية، أو تلاوة أجزاء منها. وقد يستبدل بها 'الياثا اهو فايريو' (Yatha Ahu Vairyo).
وينهض الكاهن الممارس بعدها، ويبقى الطفل واقفا أمامه.

يتألف الجزء الأول من التعميد، من تقديم القميص المقدس إلى الطفل. وتتضمن الصلاة المقامة لهذا الغرض جزأين:

أ- الخاشنومان الأفستية (Khashnuman avestique) من اليزاتا دين (Yazata Din)، القيم على الديانة.

ب- عبارة البازند (Pazand) المتعلقة بالاعتراف بالعقيدة. وهذا الاعتراف المتضمن هذين العنصرين مدون كالآتي:

'المجد للقانون المزدي، الأكثر استقامة، والأكثر حكمة، والأكثر قداسة، والأفضل، هبة مزدا الديانة الصالحة، الحق، الكاملة التي أرسلها الرب إلى هذه الدنيا، وحملها زرادشت. تلك الديانة هي ديانة زرادشت التي نزلها أهورا مزدا على القديس زرادشت'.

بعد أن يعلن الطفل على الملأ، إيمانه بالديانة الزرادشتية، المزدية يلبسه الكاهن القميص المقدس، وهو ينشد العبارة المقدسة:

'ياتا أهو فايرو'، ويشاركه فيها بقية الكهنة. ويدير الطفل له ظهره متوجها نحوالشرق، إذا أقيمت الشعائر صباحا، ونحو الغرب إذا كانت في المساء، وينشد مطلع 'هورمزد ياشت' و'نيرانج – إي – كوستي'. وإليكم مجمل هذه الصلاة:

'السيد الرب الكلي العلم يجعل أهريمن بلا حول ولا قوة. فليحل الدمار بأهريمن وعصابته والهزيمة والخذلان. أيها السيد الكلي

الحضور، إني أتوب عن كل ذنوبي، وأتوب عن كل أفكاري السيئة التي جالت في ذهني، وكل أقوالي السيئة التي نطقت بها، وكل أفعالي السيئة التي اجترحتها. إن رضوان أهورا مزدا وخذلان أهريمن هما الرغبة السامية لكل الساعين إلى الحقيقة'.

ويُلَف حينئذ، الكوستي حول خصر الطفل بعد ترتيبات معقدة. ويتلو الطفل أثناء ذلك بصحبة الكاهن الممارس 'نيرانج — إي — كوستي'، التي تحوي الجزء الأخير من قواعد الإيمان، والأهم فيها:

'أيها السيد القدير، أغثنا بعونك! إني عابد مزدا. إني عابدٌ زرادشتي لمزدا. أمجّد الأفكار الصائبة، والأقوال الطيبة، والأفعال الصالحة. وأؤمن بالديانة المزدية الصالحة التي تحسم المجادلات والمنازعات، وتوجهنا نحو التقوى، فهي المقدسة من بين كل الأديان الموجودة، وقد ازدهرت وستزدهر مستقبلاً.

هي الأعظم والأفضل، وأكثرها روعة. إنها الديانة 'الأهور مزدية الزرادشتية'. إني أنسب كل الخير إلى 'أهورا مزدا' هذه هي عقيدة الإيمان المزدية'.

ويتوج الكاهن الممارس هذه الشعيرة بأن يجعل علامة حمراء (Kunkun) على جبهة الطفل. فهي عمودية وطويلة إن كان ذكراً، ودائرية إن كانت أنثى. ثم يضع بيدي الطفل جوزة الهند، والأزهار، والهدايا الأخرى التي ذكرنا. ولم يبق سوى تلاوة المباركة (Tandarusti). ويذكّر الكاهنُ الممارس الطفلَ ببركات الرب، بالعبارات التالية:

'فلتوهب الصحة، والعمر المديد، وروعة التقوى. ولتهبك المعونةَ اليزاتا الصالحة والأميشابند. يا مولانا القدير! هب العمر المديد،

والبهجة، والصحة لحاكم بلدنا، وكل الجماعة، وللطفل الواقف أمامك. وهب له عمرا مديدا، ليكون عونا للمتقين. وبارك لنا في يومنا هذا، وفي شهرنا هذا، وعامنا هذا. ولينعم الرب عليك بالحياة الطويلة، الصالحة، المحسنة، الدينة. ولتقم بأعمال الخير، ولتكن العافية، والفضيلة، والسعادة نصيبك. ونسأل الخالدين المحسنين أن يحققوا كل الأماني والرغائب. آمين، آمين.

التلقين لدخول الكهنوت

لا يدخل في سلك رجال الدين سوى ابن كاهن. ولكي يكون كاهنا مؤهلا بكفاءة، ينبغي له أن يجتاز درجتين من التلقين:

1- النافار.

2- المرتب.

1- النافار

يطلق اسم النافار على الشخص الذي رسم حديثا لتلاوة الصلوات، وإقامة الشعائر وسواها من الأعمال المقدسة في خدمة أهورا مزدا. في البداية ينبغي للمرشح إلى التلقين، أن يخضع لطهارتين من البارشنوم. ثم يلقنه كاهنان لدخول الكهنوت. ولكي يكون هذان الكاهنان جديرين بإقامة هذه الشعيرة ينبغي لهما إتمام شعيرة الجورا (Gewra)، وذلك بتكرار الياسنا صباحا، ست مرات متتالية. وفي اليوم السادس من الجورا يلقن المرشح الكاهن الذي قام بشعيرة الياسنا. فيتناول العضو الجديد الخبز مع كل الإجراءات المناسبة،

ويرتدي بذلة جديدة، ثم يسير به الموكب إلى معبد النار. وفي مدينة كبرى مثل بومباي يطوف الموكب داخل المعبد. ويرتدي المُحتفى به ملابس الشعائر كاملة، فيضع على كتفيه شالاً ويمسك بيده صولجاناً (Gorz)، شعار الشرف والسلطة. وحينما يصل الموكب إلى مكان التلقين ينزع المرشح البذلة والشعار، ثم يأخذ بيده أحد الكهنة الممارسين، ويقف أمام المجلس. فيتوجه الكاهن المكلف بالشعيرة إلى المجلس بهذا السؤال:

"هل توافقون على قبول هذا المرشح؟"، وينتظر الجواب بضع لحظات، ثم يعتبر سكوتهم علامة قبول، وأن المجلس قد أعلن عن موافقته. فيتقدم المرشح، بعدئذ، حتى اليازيشن – جاه- (Yazishn Gh)، وهو المقام المخصص لإقامة الطقوس، فيؤدي شعيرة الياسنا ثم شعيرتي الباج والأفرينجان. ويتردد هذا الأمر أربعة أيام، ثم يُرسَّم قبوله في سلك الكهنوت.

كتب الدكتور مودي يقول:

"يذكّرنا النافار الزرادشتي في بعض عناصره، بنظام الفرسان المسيحي في

العصور القديمة، حينما كان واحداً من الأنظمة الدينية. وإليكم أوجه الشبه بينهما:

1- ينبغي لكل من النافار الإيراني والفارس المسيحي أن يتناول الخبز كجزء أساسي من الشعيرة.

2- ويرتدي كلاهما ملابس بيضاء، رمز الطهارة.

3- يَعمد الفارس إلى الصيام. وأما قواعد النافار فلا تأمر بالصيام ولكنها تدعو إلى الامتناع عن بعض الأمور، والاعتدال فيها.

4- يحمل كلاهما سلاحا رمزيا، فسلاح الفارس سيفه، وسلاح النافار صولجانه.

5- يتطلب كلا النظامين التضحية، والرغبة في محاربة الشر.

2- المرتب

إن الكاهن الذي اجتاز شعيرة النافار لا يمكنه أن يمارس سوى عدد محدود من الطقوس الدينية. ولا يمارس الطقوس الهامة المقامة في المعابد. ولكي يتأهل لها، ينبغي له الحصول على الدرجة الثانية من التلقين، وينال درجة المرتب. أي: الحائز على درجة أو مرتبة مدير الكهان. وخلال هذه الشعيرة يؤدي المرشح البارشنوم لمدة عشرة أيام. وبعد أن يكملها يقوم بالياسنا في اليوم الحادي عشر. وبعدها، يغدو كامل الأهلية ليترأس كل أنواع الشعائر الدينية.

الفصل الرابع

طقوس التكريس

تكريس النيران المقدسة ومعابد النار

هناك ثلاث درجات للنار المقدسة:

1- الأتاس بهرام (Atas Behram).

2- الأتاس أدران (Atas Adaran).

3- الأتاس دجدا (Atas Dagdah).

ولكل منها طقوسه الخاصة، سواء تعلق الأمر بتكريس النار، أو بالصلوات اليومية التي تقام خمس مرات (gahs) يوميا، حينما تزود النار بوقود مجدد.

إن قواعد تكريس النار المقدسة من الصنف الأول (أتاس بهرام) سبعة هي:

1- اجتماع ستة عشر نوعا من أنواع النار.

2- تطهرها.

3- تكريسها.

4- ضمها في نار مقدسة واحدة.

5- تكريس هـذه النـار المقدسـة الموحـدة(Santum Sanctorum) .

6- تكريس قاعة النار، قدس الأقداس (Santum Sanctorum) لمعبد النار.

7- ترسـيم النار المقدسـة.

دلالـة الشـعيرة

مـا دلالـة تلـك النـار التـي توحـدت كذلـك، وطـهرت، وكرسـت، ورسمت؟ يقول الزرادشتي لنفسه وهو واقف أمام النار المقدسة:

"إذا كانت هذه النار التي أراهـا، الطـاهرة بذاتها، أنبل مخلوقات الرب، وأفضل رمز للألوهية، ينبغي لها أن تكابد عمليات التطهير، وأن تتوصل إلى جوهر الصفاء أو أثيره (Quintessence)، لتكـون جديـرة بهذا المقـام السـامي – أفليس حتمـاً عليّ وجوهريـاً، وهامـاً، أنـا العبـد الفاني، أن اجتنب الآثام والجرائم، وألاّ ألوث ذاتي ببعض هـذه الشـرور الماديـة أو المعنويـة؟ وكـم يكـون ضروريـاً أن أخضـع لقواعـد الطـهارة والتقوى، وأن أنقي بغربال التقوى كل أفكاري الصائبة، وأقوالي الطيبة، وأفعالي الصالحة، وأن أعزل بالطريقة ذاتها أفكاري الصائبة وأقوالي الطيبة وأفعالي الصالحة عن أفكاري السيئة وأقوالي السيئة، وأفعالي السيئة، لعلني أكون جديراً بمقام سام في الحياة الآخرة!".

إن النار على مختلف أنواعها يتعهدها الناس من كل الطبقات في بيوتهم، وهم منصرفون إلى شؤونهم. كما تستخدم النـار في إحـراق الموتى والحصول على رمادهم. تُذكّر هذه الشعيرة الزرادشتيَ بأنه على الرغم من أن مختلف النيران المجلوبة من مساكن بشرية قد تطهرت

فاكتسبت بذلك مقاما ساميا في الوعاء، مهما كانت طبيعتها الأولى. كذلك الناس، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية، متساوون أمام الرب، على شرط أن يكونوا قد اجتازوا محنة التطهير، واحتفظوا بنقاء أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم.

حينما يجد البارثي نفسه في حضرة النار المقدسة، فإن الكاهن الممارس يرفع أمامه ملعقة مملوءة بالرماد المستخرج من النار الملتهبة، فيمسح المؤمن بهذا الرماد جبهته، كما يفعل الكاثوليكي بالماء المقدس، ويقول لنفسه:

'الرماد يعود رمادا. والنار على توقدها، وإشعاعها، قد نشرت طيب رائحة خشب الصندل والبخور حولها، ولكنها ستعود نفسها رمادا. كذلك مصيري. فلأكن مثل هذه النار، أبذل جهدي لكي أنشر قبل موتي، طيب رائحة العمل الصالح، والنور، والاستقامة، والمعرفة'.

تعهد النار المقدسة

إن شعيرة إذكاء النار المقدسة في معبد النار، تحدث خمس مرات يوميا. وتختلف باختلاف درجة النار المقدسة. فإذا كانت نارا من الدرجة الأولى ينبغي للكاهن أن يكون قد أدى البارشنوم وأكمل شعيرة الخوب (Khub). وبعد أن يتلو صلواته يضع بعض البخور الحر، وست قطع من خشب الصندل في النار، ويجعلها على شكل تاج (Machi). ثم يطوف حول المجمرة وبيده ملعقة من معدن، ويتوقف على ثمانية أوضاع مختلفة أمام أطرافها الأربعة، وزواياها الأربع، ويتلو شذرات من صلاة، إليكم موجزها:

أيها الرب! إنا نحمدك بنارك. نحمدك بالتقرب إليك

بأفكار صائبة. إنا نحمدك بنارك. نحمدك بالتقرب إليك بالأعمال الصالحة. ونفعل ذلك كله لتنوير أفكارنا، وأقوالنا وأفعالنا[1].

ينطق الكاهن المارس بالكلمات الآتية:

أفكار شريرة، أقوال شريرة، أفعال شريرة ، (Dushmata Duzhukhta, Duzvarshta) ، أثناء تلاوته الجزء الأول من النيايش والبازند، ثم يقرع ثلاث مرات، الجرس الموجود في المقام المقدس لمذبح النار. ويحرك بعض الكهنة الجرس ثلاث مرات لدى كل كلمة ينطقها، وذلك للتوكيد على الجزء من الصلاة التي ينبغي للمتعبد أن يعبر فيه عن عزمه على التخلص من الأفكار الشريرة، والأقوال الشريرة، والأفعال الشريرة.

أما شعيرتا تكريس النار من الدرجة الثانية والثالثة فتطابقان الأولى، ولكنهما أكثر بساطة. كما أن عدد النيران المختلفة أنقص. وكذلك شعيرة (Boe) المتعلقة بإذكاء هذه النيران، أقل تعقيداً.

إن المعابد أو الأبنية التي تحفظ فيها النيران المقدسة يتم تكريسها بتلاوة صلوات الياسنا، والفنديداد، والباج، أربعة أيام متواليات.

تكريس أبراج الصمت

في وسط الفضاء المختار لإقامة البرج يؤدي الكاهن شعائر الباج تكريماً لسراوشا، الروح المكلف بإرشاد أرواح الموتى، وتكريماً لاهورا مزدا، وسبنتا أرمايتي، وأميشاسبند، الذين يحكمون البلاد. وتكريماً لـ

'أردافرافاش' (Ardafravash) ، أي كل الأرواح غير المتجسدة، وتكريما لـ 'هافت أميشا سبند' (Haft Ameshaspend) السبعة، الصالحين، الخالدين.

بعد عدة أيام يقيم في الصباح، كاهنان شعيرة الـ 'تانا' (Tana) . لإرساء قواعد البرج. وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن خيطا رفيعا (Tana) يستخدم لتخطيط محيط البرج وأجزائه المختلفة لإرساء القواعد . فينسج مئة خيط وخيط في حبل متين. ويجب أن يكون من الطول بحيث يلتف ثلاث مرات حول محيط البرج الخارجي، ومحيطه الداخلي، وتفرعاتهما . وقبل أن يستعمل بزمن يتحول إلى (Pav) أي يغسل، ويطهر ويجفف. ولتثبيته يغرز الكاهن في الأرض ثلاثمئة وتد ووتد، مختلفات الوزن والحجم.

وفي الحفرة التي تشغل وسط البرج، وتدعى 'بهاندار' (Bhandar) ، يقيم كاهنان، ثلاثة أيام متتالية، شعائر الياسنا والفنديداد، تكريما لليزاتا سراوشا الذي يحمي أرواح الموتى ثلاثة أيام وثلاث ليال بعد الوفاة. وفي صباح اليوم الرابع، يوم افتتاح البرج، تقام شعيرة الياسنا، تكريما لأهورا مزدا . ثم تأتي شعيرتا الباج والأفرينجان، تكريما لأهورا مزدا والأردفرافاش (Ardafravash) ، أي الأرواح غير المتجسدة، وتكريما لسبندارماد (Spendarmad) ، رئيس الملائكة الموكل بالأرض – الأم، التي خصصت قطعة منها لسكنى الموتى، وتكريما لسراوشا . وفي شعيرة الأفرينجان المعروفة باسم جازان (Jasan) ، التي تقام بحضور العديد من أعضاء الجماعة الذين جاؤوا شهودا عليها، يذكر اسم المتبرع الذي أنشأ البرج على نفقته، ويدعى له ببركات الرب. وبعد انتهاء الشعائر يرمي الحضور في الحفرة المركزية من البرج، قطع النقود من ذهب وفضة ونحاس، ويرمون حتى الخواتم وغيرها من

الحلي التي تساهم في استكمال المبلغ اللازم لبناء البرج، إذا كان يشيد على نفقة الجماعة. أما إذا تكفل متبرع واحد بنفقته، فإن حاصل هذه الهبات يدفع إلى الكاهن الرئيس في المقاطعة التي يقع الصرح تحت سلطتها الدينية. وقد يحوله أحياناً، إلى الجمعيات الخيرية في المدينة.

الفصل الخامس

الشعائر الدينية

يوجد نوعان من الشعائر والطقوس الدينية، فهي داخلية وخارجية. ولا تقام الأولى إلا في موضع خاص مهيأ لهذا لغرض، ويعرف باسم ' در – إي – ميهر' (Dr - I - Meher) أي: خارج المهر. ويكون هذا الموضع ملحقا بمعبد النار، بشكل عام. وتتألف الشعائر والطقوس الداخلية مما يلي:

1- الياسنا أو اليازيسنا (Yasna - Yazisna) .

2- الفيسباراد (Visparad) .

3- الفنديداد (Vendidad) .

4- الباج (Baj) .

الياسنا

إن الياسنا (وهي بالسنسكريتية Yagna أو Yajna) صلاة تتضمن الحمد للرب وسواه من الكائنات الروحية، وتسألهم المعونة. وهي صلاة هامة، وشعيرة شديدة التعقيد. تعرض خلالها بعض الأشياء الرمزية. وتتلى في هذه الشعيرة الاثنان والسبعون فصلا المسماة بالـ 'هاس' (Has) من الياسنا. وهذا شرط لا غنى عنه.

الفيســــباراد

الفيسباراد شكل من الصلاة الموجهة إلى إحياء الأعياد الفصلية. وهي كذلك صلاة يستشفع بها إلى مجمل الراتو (Ratu)، وهي كلمة تدل على ما هو جوهري أو مفضل بين المخلوقات. ويضيف الدكتور مودي قائلاً "إن إقامة الفيسباراد يجب أن توحي للكاهن بفكرة التسامي". فكيف الوصول إلى تلك الحالة؟ وتجيب الفيسباراد:

"أيها الزرادشتية المزديون، هيئوا أقدامكم، وأيديكم، وعقولكم لإنجاز الأعمال الطاهرة، المناسبة، المحسَّنة، واجتناب الأشياء الدنيئة، غير المناسبة، والأنانية. وليكن العمل شعاركم.

ساعدوا المحتاجين وأنقذوهم من سوء الحال".

الفنديداد

الفنديداد هو مَتْنُ (Corpus) القانون. ويتباعد عن طرق الديفا (الأرواح الشريرة) ويتضمن القواعد والأوامر التي تبين كيفية محاربة المؤثرات الفاسدة لهذه الأرواح الشريرة. أو محاربة القوى المؤدية إلى الدنس وتهافت الجسد والفكر. ويمكن أن ندعو جزءاً من هذا المجموع، القانونَ الصحي لقدماء الإيرانيين، والجزء الآخر قانونهم الجزائي.

شعيرة الباج

إن شعيرة الباج جزء من مراسم الجنازة. وتقام على مختلف الأحوال، في مسكن زرادشتي. والأحوال الرئيسية هي الأيام الثلاثة الأولى التالية على الوفاة. يأتي بعدها الشاهروم، أي اليوم الرابع، ثم

الداهـوم، أي اليـوم العاشـر، ثـم السـيراروز، أي اليـوم الثلاثـون، ثـم السالروز التذكار السنوي.

وتقع مسؤولية إقامة هذه الشعيرة على عاتق ابن المتوفى، أو أقرب وارثيه. وتوهب خلالها بعض الأشياء كرموز من أصناف المخلوقات المختلفة، من حيوان ونبات، على سبيل المثال. وهي فريضة إكراما لليزاتا، أو أي كائن سماوي آخر، أو تذكارا (على روح) لأحد الأقارب المتوفين.

الشعائر الدينية الخارجية

يمكن أن تقام هذه الشعائر في 'در _ اي _ ميهير'، كما تقام في أي مسكن خاص، أو تقام في الهواء الطلق. يقيمها من يشاء من الكهنة. وتحتوي على ما يلي:

1- الأفرينجان .

2- الفاروخشي .

3- الساتوم .

1- الأفرينجان

تعبر صلوات الأفرينجان عن تمجيد الرب والأرواح العلوية، وهي تقابل صلوات (Apei) لدى البرهميين. توقد نار متوهجة في مبخرة أمام الكاهن الممارس، يذكيها خشب الصندل والبخور الحر. وتكون الهبات أساسا من الفواكه، والأزهار، والحليب، والماء، والخمر والشربات (Sherbet) أي: العصير.

2- الفاروخشـــي

ترمـي هـذه الصـلاة إلـى دعـوة الفرافاشـي التـابعين للموتـى، والشـفاعة بـهم، والضراعـة إليـهم. وهـي تـؤدّى – عمومـاً – مثـل الأفرينجـان، علـى الفواكه، والأزهـار، والحليـب، والمـاء، والخمـر.. إلـخ، أمـام النـار. والفارفاشـي هـي هـذه القـدرة، أو هـذا الجوهـر الروحـاني الكامن في المادة، الذي يتيح لها النماء. وهو الروح الحاضر في كل شيء من جماد وحيوان، يحفظه من التهافت، ويمنحـه القـدرة علـى التطـور، والازدهـار. والمُعتقد أن كل شيء في الطبيعة يملك فرافاشي خاصاً به.

هذه الفرافاشي هي نماذج أولية، شبيهة بـ 'مُثُل' أفلاطون الـذي يعتقـد أن لكل شـيء وجـوداً مزدوجـاً، مُتَصوَّراً في البدايـة ثم متحققًـا. وعددهـم، بحسـب الفرافـارون ياشـت، قُرابـة الكتيبـة. وهـم يحفظـون ويحرسون بحر قزوين. وإن عدداً مماثلاً منهم يحـرس مجموعـة الـدب الأكبـر، ويحفـظ جسـد كيريساسـبا (Keresaspa) وعِـرق زرادشــت. والمعتقد أن الكون مصنوع من أشياء لا حصر لها، ذات حياة أو جامدة، كبيرة أو صغيرة. وأن لكل شيء فرافاشيه، أو جوهره الروحاني الخاص به، يحفظه ويحمله، وكل هذه الجواهـر الروحانيـة علـى كثرتـها، تفيـض جميعاً عن الجوهر القدس، الأعظم، وخالقها الذي يسخرها لخدمته.

'أهورا مزدا' هو المهندس الأعظم للكون. وهو خالق العالم المادي، كما هـو خـالق العـالم الروحـاني. أمـا الفارفاشـي فتؤلـف خليقـة العـالم الروحاني، وتحتل في التراتبية الروحانية مرتبة الشرف الرابعة.

أمـا أهـورا مـزدا (السـيد الكلـي الحضـور، الموجـود بذاتـه) فـهو في الذروة.

وتأتي بعد الأميشا – سبينتا (الخالدون السامون)، مخلوقاته التي أبدعها. ثم تأتي اليزاتا (حرفيا: أولئك الجديرون بالعبادة)، ثم الفرافاشي، الأرواح الحارسة، والحامية.

تدعو الزرادشتية إلى تمجيد الأموات. وتقر بأن للأموات كينونة مستقبلية في مكان ما، وأن بين الأحياء والأموات علاقة من العلاقات تمر عبر الفارفاشي، الروح الوصي على الموتى والمرشد لهم، وهو يسارع إلى نجدة الأحياء ويتيح لوجودهم أن يكون طاهرا، فاضلا، ويفيض بالبركة على الأموات.

أما الفاروخشي فهي تلاوة الأماديح لهذه الفرافاشي، إكراما لروح الأموات. وتحتوي على صلاة الساتوم والفرافارون ياشت. وأما قرابينها فهي قرابين الأفرينجان ذاتها.

3- الساتوم

هي صلاة تمجيد لفرافاشي الموتى، وتتلى قبل تناول الوجبات، عموما. فتسكب وجبة الطعام في قصعة توضع أمام الكاهن، أثناء الصلاة. فالميت الذي تقام صلاة الساتوم إكراما له، يذكر اسمه أولا في صلاة البازند.

توليفات من الشعائر الدينية

قد تتضام مجموعات من الشعائر حينما تقام بعض الطقوس الدينية المختلفة. ونذكر من بين هذه التوليفات ما يلي:

1- 'الهوما ياشت' (Homayasht) (عبادة الهاوما).

2- 'الجيتي خاريد' (Geti - Kharid) (محرفة عن الاسم الأفستي البدائي (Usefriti)، وهي شعيرة موجهة للحصول على الخلاص، والتحرر من ذنوب الدنيا).

3- 'السراوش' (شعائر جنائزية تقام تكريماً للمتوفى، خلال الأيام الثلاثة الأولى التالية على وفاته).

4- 'الزنده - رافان' (Zindeh - Raven) (شعيرة سراوش تقام في حياة الإنسان).

5- 'الجاهامبار' (Gahambars) (إحياء للأعياد الفصلية).

6- 'الجاشان' (Jashan) (استذكار لحدث هام).

7- 'الفرافارديجان' (Fravardegan) (تكريم للفرافاشي، الأرواح الحامية).

8- 'الفاريستا' (Faresta) (ويُضرع فيها إلى كل اليزاتا).

خلال إقامة هذه الشعائر تتلى الياسنات، والفنديداد، والفيسباراد، والأفرينجان، والباج وسواها من الصلوات، وتكرر عدة مرات على نظام محدد بشكل معين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأوامر والشعائر مرتبطة أشد الارتباط بمسيرة الحياة الإيمانية للنبي العظيم الذي كان كتابه يدعو إلى الصفاء والكمال، والتفاني وحسن العمل، منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة. فإلى أي مدى تتطابق أوامر هذه الديانة، عموماً، مع مكتشفات العلم الحديث؟ يمكننا معرفة ذلك من اللوحة التي رسمناها لطقوس الزرادشتية وشعائرها.

إن هـذه الديانـة القديمـة تعـالج مسـائل القـدر الأبديـة بعقليـة إنسـانية وعقلانيـة عميقـة الغـور. داعيـة أتباعـها إلـى التـأمل المركـز، والإعلاء من شأن أعمال الخالق الخيرة التي لا تحصى. وإلى الالتزام الشـديد بمبـادىء الحـق والعـدل، علـى حـين تشـيد قانونـا للطـهارة الاجتماعية، قائما على مفاهيم النظافة والسلامة، سابقة بذلك تعاليم العلم الحديث.

فهرس

سلسلة حكمة الشرق "في العقائد والأديان"

تصدر بإشراف الأستاذ خالد جعفر

صدر منها :

1- تعاليم زرادشت "وفلسفة الديانة البارثية" 2004.

تأليف: كاباديا.

ترجمة وتقديم وحواشي: خالد جعفر.

2- الزرادشتية "ديانة الحياة الفاضلة" 2004.

تأليف: ر.ب.ماساني.

ترجمة: د.محمد نديم خشفة.

تقديم وحواشي: خالد جعفر.

يصدر قريبا و تباعا :

_ البهاجفادجيتا.

تأليف: رادها كريشنان.

ترجمة و تقديم و حواشي : خالد جعفر

_ الأرديون.

تأليف : جون جوست

ترجمة وتقديم وحواشي: خالد جعفر.

_ تعاليم الرحمة لبوذا.

تأليف: ي . أ. بورت.

_ التعاليم السرية للفيدا.

تأليف: ستيفن كناب.

_ باتا نجالي واليوغا.

تأليف: مارسيا إلياد.

سلسلة أعمال طاغور المختارة

تصدر بإشراف خالد جعفر

صدر منها:

1- جيتنجالي، ترجمة وتقديم: خالد أحمد جعفر

يصدر تباعاً:

2- البستاني

3- سادهانا

4- الشخصية

5- الشلال

6- أربعة فصول

7- أيام صباي

8- القومية

9- الوحدة الخلاقة

10- ملك الحجرة المعتمة

11- روابط متفككة

12- الشقيقتان

13- حجارة جائعة وقصص أخرى

14- شيترا- الهلال

15- طيور شاردة- هدية العاشق

16- العبور- قصائد مختارة

17- كورا

سلسلة مسرحيات وليم شيكسبير

ترجمة وتقديم خالد جعفر

1- يوليوس قيصر
2- الملك لير
3- مكبث
4- عطيل
5- هاملت
6- كوريولانس
7- ريتشارد الثاني
8- روميو وجولييت
9- ترويلوس وكريسيدا
10- أنتوني وكيليوباترا
11- تيتوس أندرونيكوس
12- ريتشارد الثالث

سلسلة النصوص الفلسفية

تصدر بإشراف خالد جعفر

صدر منها:

1- في اليقين

تأليف: لودفيغ فيتجنشتين 2004

يصدر تباعا:

2- هذا ما قاله فيتجنشتين حقا

تأليف أنتوني كيني

3- الظاهر والخفي

تأليف: ميرلو بونتي

4- الذات كأنها الآخر

تأليف: بول ريكور

5- عن الدين

تأليف: شوبنهور

6- اللغة والحقيقة والمنطق

تأليف: الفرد جولز أير

7- التصوف والمنطق

تأليف: برتراند رسل

8- خواطر

تأليف: ماركوس اوريليوس

9- مقالات

تأليف: ميشيل دي مونتيني

10- الوجود والجوهر

تأليف: اتين جيلسون.

أولت الزرادشتية الجانب الخلقي من حياة الفرد أهمية كبيرة لما رأت فيه من ضرورة فاعلة في بنائه بناءً أخلاقيا فاضلاً.

وأشارت إلى أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال التزامه بالمنحى الخير في الفكر والقول والعمل، لأن ذلك سيؤدي بالضرورة إلى أن يتحلى الزرادشتي بالنبل الذي ترى الديانة أنه ثوب النقاء الذي يشرف كل من يرتديه، على حين أن الرزيلة ثوب يورث العار لكل من يلبسه.

وقد جاء تأكيد زرادشت على دعوة مريديه إلى التحلي بالطهارة والصدق والابتعاد عن الدناءة والكذب، لكي ينالوا شرف السعادة بكل جدارة واستحقاق، لأنها جزاء كل من يجعل الاستقامة شرطاً أساسياً في سلوكه الذي يجب أن يكون الترجمة الصادقة لحقيقة إيمانه و عقيدته.

لقد حظيت الزرادشتية باهتمام بالغ من قبل عدد من المفكرين والباحثين في الديانات القديمة في الشرق والغرب.
لما وجدوا فيها من أسس جوهرية في بنـ
الصالح.

خالـ





مركز الإنماء الحضاري CEC
CENTER-ESSOR ET CIVILISATION